

كتب للجميع

عشرة أيام في السودان
بقلم
محمد حسين هيكل باشا

جميع الحقوق محفوظة



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

فهرس

٥	اهداء الكتاب
٦	مقدمة
٩	من مصر الى الخرطوم
٢٢	الخرطوم من النظرة الاولى
٣٥	عيد الملك
٤٣	حكومة السودان
٥٤	يوم بام درمان
٦٥	حفلة افتتاح خزان سنار
٧٠	العودة الى الخرطوم
٨٢	خزان سنار
٩٧	يوم في جبل الاولياء
١١٥	عشية الاوبة
١٢٦	مصر والسودان

إهداء الكتاب

الى اهالى السودان

شكر وتحية

محمد حسين هيكل

مقدمة

ليس في هذا الكتاب شيء أكثر مما يمكن أن يشتمله عنوانه . فهو مجموعة ملاحظات ومعلومات جمعتها اثناء رحلتنا القصيرة بالسودان . وهي قصيرة حقاً لأنها لم تتجاوز عشرة أيام . وعشرة أيام أمد قصير لا يستطيع الإنسان فيه أن يلم المأما صحيحاً بكل ما يقع تحت نظره كما لا يستطيع تحقيق كل ما يصل الى مسامعه . لكنها مع ذلك تسمح بالوقوف على كثير مما لم يكن للإنسان به علم ، كما تسمح بتحقيق كثير مما كان الإنسان يتخيله تخيلاً ، وربما كان لصحفي مثلي حظاً لا يتاح لغيره يمكنه من الوقوف على كثير من الأشياء . فالصحفي منظور اليه من الناس جميعاً على أنه كلمة الناس جميعاً . اليه يذكرون ملاحظاتهم وآراءهم ويثنون شكاياتهم وهمومهم ويبدون الآلامهم . ثم هم يتسابقون في اجابته الى ما يطلب الوقوف عليه لعلمهم انه سيذيع ذلك للناس جميعاً .

على ان ذلك ليس وحده هو الذي دفعني الى تدوين هذه الملاحظات والمعلومات التي وقعت عليها اثناء مقامي عشرة أيام بالسودان . فلقد سافرت قبل اليوم الى غير السودان من بلاد مجاورة لتأ بعيننا امرها عناية كبرى وفكرت في ان اكتب شيئاً عنها ثم ترددت وانتهى بي التردد الى الاحجام . وهذه سوريا اقرب لنا من السودان زرتها مرات واقمت فيها في كل مرة اكثر مما اقامت بالسودان ، بل اضعاف ما اقامت بالسودان . ومع ذلك ، ومع عناية المصريين بكل ما يدور في سوريا ، لم ارمأدفعني الى ان اكتب عنها مثل ما اكتب اليوم عن السودان . ولعل أكبر السبب في هذا راجع الى ان لدى المصريين فكرة تكاد تكون صحيحة عن سوريا واحوالها وما يدور فيها والى ان السوريين انفسهم يكتبون عن بلادهم وعن احوالها ما يزيد في الدقة على كل ما يمكن أن يكتبه

سائح تضى مدة قصيرة في ربوعهم ثم لعل ثمت سببا آخر . ذلك ان بين مصر والسودان رابطة طبيعية هي النيل أبو النعمة ومانح الحياة للبلاد المحيطة بواديه الضيق الخصب المتصل اوله بأخره بالثار التاريخ الخالدة على التاريخ . هذه الرابطة الطبيعية المتصلة بها حياة المقيمين على ضفاف النهر السعيد تجعل بين ابنائه من رابطة الاخوة ما ان عقوه يوما فلن يزال رابطة تربطهم ويجب ان تنتهى الى خير ماتنتهى اليه مودة ذوى القربى .

ثم ان السودان على متاخمته لمصر رعى امتلاء قلوب المصريين باسمه ويذكره بعيد عن أن تكون منه في اذهانهم صورة مضبوطة . فمعهم من يخاله بلادا جرداء لاتصلح لمقام ولا يمكن أن تكون الا منفى لمن غضب عليه الأمر في أرض مصر . ومنهم من يتوهمه مقام همج لا امل فيه لرواج زراعة او صناعة او تجارة . وكثيرا ما روى عنه الراويون ان اهله أشد الناس عداوة للسعى والعمل ، وانهم لا يريدون من الحياة الا بلغة تقيم الحياة ، فليس بهم الى مياه النيل من حاجة ، وليس الى المقام بينهم باسم المدنية او التعمير سبيل . وهذه الافكار وما اليها من مثلها تروج في مصر ، ومنها كثير فاسد أشد الفساد وضار بالمصريين انفسهم ابغ الضرر . فليس بد اذن من ان يكون المصريون لانفسهم عن هذه البلاد صورة صحيحة بعيدة قدر المستطاع عن ان تلونها شهوات الساسة ثم ان مسألة مياه النيل واولوية مصر التاريخية في الانتفاع بها ، وامكان توزيعها لتكفي مصر والسودان جميعا امكانا فنيا ، وما قد يقوم في وجه ذلك من عقبات سياسية ، وما تجنى هذه العقبات السياسية على حسن فهم المصريين والسودانيين بعضهم لبعض ، وعلى احتفاظ كل منهم ازاء أخيه بعواطف الاخلاص والمودة - كل ذلك جعلنى اوجه حفا كبيرا من همى ومن عنايتى الى هذه المسألة الخطيرة التى اتم تنج في مصر كما لم تنج في السودان من شوائب الشهوات السياسية ، والتي كانت وما تزال سببا لنشور

الدعوة التي تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء .
ولقد جعلتني صفتي كصحفي أشعر بثقل حمل الواجب الملقى
على عاتقي . فسعيت بكل ما لدي من جهد لارى ولاسمع ولاحقق
ولاصل الى الفكرة التي اقتنع بصحتها في كل مسألة اتعرض
لها . ولذلك لم أقف من ملاحظاتي عندما جمعت في عشرة ايام التي
اقمت بالسودان . بل جاهدت لامحص هذه الملاحظات بمناقشة
من ذهبوا الى السودان ومراقبوا فيه من المصريين ومن غير
المصريين . وكل غايته من هذا التمحيص ان يكون القليل الذي
اعرضه في هذه الرسالة امام نظر اقراء اقرب ما يكون للواقع
والحقيقة .

ويجب ان انبه القارئ الى اني توخيت غاية الصراحة فيما
سيقرا . لم ارج ما قد يرعاه مشغل بالسياسة مثلى من
المجاملات ولم اسع لتعليق انسان او جماعة ولم اتقيد برأي سياسي
او غير سياسي . لاعتقادي التام بان المواقفة كثيرا ما ينشأ عنها
الخطأ . واذا اخطأ الناس في تصور شيء لا وسيلة عندهم الى
تحقيق رأيهم فيه لبعده عنهم بعد السودان عن مصر كان عسيرا
بعد ذلك ان يتغير رأيهم ثم كانت الخطوة التي يسرون عليها مترتبة
على هذا الخطأ داعية التورط في ضلال لا ينشأ عنه الافساد في
السياسة واضطراب في النظام .

وكل ما ارجو التوفيق اليه ان اوقف القراء عامة وبنى وطني
المصريين خاصة على شيء من صورة هذا السودان الذي
يشاركنا في الامال والاماني لانه واينانا يعيش على ضفاف النهر
العظيم المحسن ، وان اوضح امورا غشت عليها الاهواء ، وان
إدل قسومي على منزلتهم من السودان ومنزلة السودان منهم ،
وما يجب ان يكون بين المصريين والسودانيين من صلة وعلاقة .
فان وفقت الى ما اليه قصدت فذلك خير ما لبغني . وان اخطاني
التوفيق فقد قمت بمجهود شعرت واجبا على ان اقوم به .
وفي اداء الواجب لذاته غبطة للنفس كبيرة .

من مصر إلى الخرطوم

يعرف أكثر الثراء الطريق من القاهرة إلى الأقصر ويقع الطريق بين الأقصر واسوان في مضيق بين سلسلتى تلال ليبيا والعرب ، ويسير القطار شرق النيل في سفح سلسلة تلال العرب وتفصله عن سلسلة ليبيا في بعض الأماكن مزارع ضئيلة تتسع أو تضيق على ما تريد التلال المحيطة بها . ويبعد النيل عن القطار أحيانا فيجعل المزارع بينهما . وقل أن ترى المزارع بين القطار وتلال العرب . ويصل الضيق بالمزارع في بعض المواقع حتى لتشعر بالسلسلتين في اقترابهما وليس بين أحدهما وبين النهر إلا دهليز ضيق مخضر بالغلال تارة ، أجرد لأزرع فيه أخرى ، فإذا كانت أسنا رأيت نشاطا غير الذي رأيت ، واحاط بالقطار من الأهالي بأعة السلال المصنوعة من الخوص وأطفال يتجرون بفاكهة البرتقال واليوسفى أفندى .

فإذا بلغت كوم أمبو رأيت خصبا ونماء لم يكن لك من قبل الأقصر بهما عهد . وقد يدهشك كبر الدهشة كيف تترك آلاف الأفدنة مما يحيط بالنيل إلى الخصب جرداء لا زرع فيها ولا نماء إذا أمكن أن تنتج هذه الأراضي مثل ما تنتج أراضي كوم أمبو . ولم لا تعنى الحكومة المصرية بتشجيع الأهالي على استغلال هذه الأراضي بدل تركها غامرة يرضى المقيمون عليها بما يتبلغون به من شعير وما يرد إليهم من ذويهم القائمين بالخدمة في المدن من أرزاق

تعود الأرض غامرة بعد كوم أمبو إلى اسوان . فإذا بلغها القطران

غادره كثيرون من الاجانب الذين قصدوا الى هذا المشتى البديع ،
وهم بين شيخ جاء يرجو في أشعة الشمس المحسنة بعض مصاني
الصبا والشباب ، وعليل يمشي في مناكب الارض يبتغي الصحة ،
وحسنا تصحب هذا الشيخ اودلك العليل يعزیه حسنها ورقتها
عن مشيبه او عله ، وترى هي في اداء الواجب لهذا العزيز شفه
السقام شيئا من رضاء النفس يعوضها عن المدين وبهجتها ، وترى
في هذه الشمس الساطعة والطبيعة القليلة التغير ما ينسبها قلب
القلوب واكاذيب الالسن وظلمات النفوس التي طالما خدعتها باللفظ
المسول . والى جانب هؤلاء الغارين من المدين وامراضها والامها
ولؤمها قوم اتسعت ثروتهم عن أن يؤدى ركن ضيق من الارض
طلبات اهوائهم وشهواتهم فجعلوا من السياحة والتجوال وسيلة
لترييض النفس وعزاء من هوم . قامة

ثم يقطع القطار ما بين اسوان والشلال ليبلغه في منتصف
الساعة الخامسة من المساء ، وهو في هذا السبيل يعود ادراج زمنا
ثم ينطلق الى الشلال يقصد صخورا وصخورا من الحجر ومن الجرانيت
تحت منه مسلات الفراعنة الاقدمين وتمائيلهم واقامت منه
معابدهم وانارهم ، وهو ما يزال الى اليوم تحت منه التماثيل
وتتخذ منه التواعد لولا ان اصبح فن الفراعنة اثرا من آثارهم

على ان هذه الاحجار التي شهدت لمصر مجدا كما تشهد لها
اليوم هما ستبقى ليكون منها المجد المستقبل نصب وتمائيل
تخلد على الزمن ما خلدت نصب فراعنة وتمائيلهم

ويبدأ القطار يسير الهوينيا يحيط به النيل وقد اتسع مداه
بعد ما حجز خزان اسوان مياهه ، ويظل كذلك بضع دقائق ينتهي
بها الى محطة الشلال حيث تنتظره الباخرة وتقل المسافرين معنا الى
جلقا



وتنحدر جبال السلسلتين عند مركز الدر في النهر مباشرة .
ومن وراء الجبال صحارى غير ذات زرع . لكن مركز الدر هو

خزان اسوان . وهو فوق هذا حصن بديع يفصل بين مايقع شماله وما يقع جنوبه . وهولذلك من خير مراكز مصر ويجب أن يكون من اعزها عليها . ويخيل الى ان من غير المستحيل استغلاله على صورة تجعل الحياة فيه اكثر رغدا ونعمة

وهو بعد مشتى لامثيل له . وانت كلما انحدرت الى ناحية الجنوب منه وجدت جوا اصح من نواحي الشمال فيه . ووجدت سماء صفوا تلمع نجومها فتضى في الليالي التي لا قمر فيها حتى لتحسبها مصابيح الكهرباء شدت الى السماء بخيوط من نور الامل الساحر . وهي شديدة البريق تبعث الى ظلمة الليل العبوس ما يزيل عبوسها ويجعل سكينتها ملاً افئدة المحدثين بالنجم اللامع بمعاني الطرب والجدل . اما الجبال المحيطة بالنهر فهي وان كانت اغلب امرها جرداء الا انها في تجردها باسمه ابداء ، وكأنها تنبه بماوراءها من مخلفات الماضي المجيد : بآثار الفراعنة زاد القدم والبلى صحتها معنى يحدثك انت ابن اليوم بما كان لحضارة العصور القديمة من آثار في الفن تخرامامها آثار الحضارة الحاضرة ساجدة ، وببقايا من آثار الرومان الذين غزوا الوادي فلم يبق من آثارهم الا بقايا لاتنطق بمعنى ولا تنم الا عن غدر الغازي وعن سلطانه الاثيم

وقد يدعشك قيام هذه الآثار المجيدة من مخلفات الماضي وراء جبال مركز الدر القفر القليل النبات . لكن دهشتك تزول اذا ذكرت انه كان اكثر نباتا ونماء قبل ان تغمر مياه النيل أرضه بعد ما قام خزان اسوان فيه ، واذا ذكرت الى جانب هذا انه كان ولن يزال حصنا قويا يدرع به الملوك ذوو الايد اذا اغار عليهم مغير او ثار بهم نائر . فجبال مركز الدر تتحكم فيما حولها خير تحكم ، تتحكم في النهر وفي السهل وفي الصحراء . ثم هي بعد جبال من صخر صلد لا يرتفع الماء الى عليائه ولا سبيل الى مسراه من خلاله فلا خوف من ان يغير النهر على آثار اعداء اهل الحياة الخلد وبقاء لا يلى .

مرجت الباخرة عند غير واحد من هذه الآثار الخالدة . عرجت هند وادى السبوع وآماد وأبى سنبل وغيرها . وهى جميعا مظاهر من هذا الفن القديم الخالد على تفاوت فى العظمة والقوة وفى الدلالة على المجد والسلطة . وأبو سنبل هو بين آثار مركز الدر أكثرها عظمة وقوة ومجدا وسلطة . وناهيك بمعبد أقامه رمسيس ليكون واحدة من آيات خلوده . وكان درسا للسفينة عند أبى سنبل فى منتصف الليل فمدت إليه أسلاك الكهرباء ليرى السائح ابن اليوم نقوش أجداد الإنسانية الخالدين على ضيائها اللامع . فمعبد أبى سنبل يخفى مكون ستره عن العيون إلا لحظة من نهار فى بعض أيام السنة . تلك لحظة مشرق الشمس عند استواء الفصول . فى هاته اللحظة تمتد أشعة الهطية والمصريين فتحى ، لحظة يزوغها منتصرة على جيوش الظلام تمثال رمسيس الخالد الجالس على عرشه منتصرا على جيوش الخيانة والغدر . أما فيما سوى هذه اللحظة فيختفى ما ينطوى عليه المعبد وجدرانه فى حجب الغيب وجلاله . وناهيك بجلال الغيب من حجاب . وكذلك ظل هذا الأثر حتى امتدت الأيدي الأتمة باسم العلم تكشف النقاب عن هذا الجلال بضيء المصباح والكهرباء على أنها حين كشفت عنه لم تكن أمام عظمته وقوته وأمام سلطانه وسلطوته أقل سحرا وبهرا .

وبهذا الجلال المطوى فى حجب الغيب تحيط جدران معبد أبى سنبل وقد وقفت أمامه تمائيل أربعة للملك العظيم كلها المهابة والجلال .



أما وادى السبوع - وهو أقرب آثار مركز الدر إلى أسوان - فيقوم فوق هضبة غير بعيدة عن النهر . يتخطى الداخل اليهوديها يحيط به آباء هول هى السبوع التى أطلق اسمها على الوادى عند أهل هذه المنطقة من السذج القانمين بسعادة الطبيعة الساذجة . وقامت داخل المعبد وفى ساحته تمائيل دكت من بعضها رؤوس وتحطمت عن البعض سيقان . وقلت ذلك الحجر الحجوبة يطلق اسمها المقدسة

وقد رسم على جدرانها من آيات ذلك الزمن القارب والجمران
والثغبان وما إليها من آلهة ذلك العصر المجيدة
أما ماسوى هذين من الآثار فأقل منها جلالا وعظمة . على
أنها أبدا آثار العصور المجيدة . تحدث أحجارها ويحدث الرمل
المحيط بها بما كان لاهل هاتيك الأزمان النائية من حضاره ومجد ،
ويدعك وأنت بين تلك التلال القائمة وسط الصحراء الغامرة
الجرداء عامر النفس بمعان قل أن تدور بخاطرك حين تشهد آثار
هذا الزمن الحاضر الممتلىء بحضارته وبعلمه وبفلسفته غرورا

لو أن السبل يسرت للوصول الى هذا المشتى البديع ، تم اقيم
فيه من وسائل الراحة والنعمة ما يطمع فيه من يرغب في الاستشفاء
ومن يفر من قارس قسر الشتاء حيث الشتاء قاس قارس لافادت
مصر من مركز الدر كثيرا ولا فاداهل هذا المركز من مصحهم
الشتوى البديع . ما يفنيهم من فاقة وما يجعلهم - وهم اهل امانة
ونشاط - قوى منتجة ذات اثر فعال في حياة مصر العامة

وانسابت الباخرة على هون تدفعها محركانها فوق لجة النهر
الهادىء الصافي وسارت تحيط بها شواطىء خضراء تارة مجدية
طورا ويشتملها هواء رقيق متنع به المسافرون فوقها كما
تمتعوا بهذا الجو البديع الذى لانظير له فى مشتى من مشاتى
العالم ، وبهذه الجبال الصغيرة الجرداء تاره والخضراء اذى
والصاعدة بالرمال الناصعة الاصفرار حيننا اخر . وبالاتار
المظلة علينا من القمم الصغيرة ترمق ابناء اليوم ترى هل تمى
فى ربوسهم او قلوبهم او افئدتهم اثر من عبادة قدس الماضى المجيد
فتري فى نفس المصرى حيننا يزداد او ينقص بمقدار بمادة
الشخص وطنه او مجرد حرصه على ما يجنيه منه من فائدة

ها نحن اولاء الان تقترب سالباخرة من حلفا ، فلم يبق بيننا
وبين ربحو الباخرة عندها الإدقائق ، وهامى تحيط بنا رينة

الشاطئين من تخيل واعشاب وتلال ورمال . وها هو ذا المباء ينساب الى جانب القارب على هون وفي هدأة وسكون . والجو رقيق والسماء صفو والشمس ربيع زاه ، وحياة الوجود خضراء ناضرة . ثم هذه حلفا عند مرمى النظر . وهانحن اولاء في سلطان حكومة السودان بعد ما ظللنا في سلطان حكومة مصر الى ساعتيين مضتا . فهل نحن سائحون في بلد اجنبي ، ام نحن ابناء النيس مانزال في وطننا تحكنا قوانينه كما تحكنا طبيعته الجميلة الفاتنة ؟

لما اقتربت الباخرة من حلفا اقبل عليها رفاص فيه موظف اوراق الجواز الى السودان وطبيب مهمته ان لا تدخل الى السودان اوبئة من مصر . وهما انكليزيان . وكان اول ما نفت بعض المسافرين الذين جاءوا الى السودان قبل اليوم ان هذا الرفاص كان يرفع في الماضي العلمين المصري والانكليزي . اما في هذه المرة فلم يكن عليه الا العلم الانكليزي . وقد اجاب انكليزي كان معنا بان العلم المصري ما يزال يرفع في السودان فعلم رفع الرفاص للعلم المصري لابد ان يكون سببه ضيق المكان المدم لرفع العلمين عن ان يتسع الا لعلم واحد . قال رفيق : والعلم المقدم هو بالطبع عنم صاحب النفوذ الفعلي .

* * *

ورست الباخرة عند حلفا ، واستقبلنا جماعة من المصريين الموظفين في حكومة السودان بكثير من البشر والترحاب ودعانا احدهم فتناولنا القهوة في بيته وذهبنا الى القطار الذي يقوم من حلفا في الساعة الثانية من بعد الظهر ليصل الى الخرطوم في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي فاذا به قطار ابيض واذا خطه ضيق كسكة حديد الدلتا . لكنك ما تكاد تدخل الى عرباته وما تكاد تستقر في غرفة النوم المخصصة لك حتى تشعر بمعنى اخر . معنى النظام والنظافة والطمأنينة والراحة . ويدهشك ان عربات النوم في هذا الخط الضيق اكثر راحة واستهواء من عربات النوم في مصر . فمعدات الراحة فيها اكثر منها في عربات مصر . صبرها اكثر سعة وغرفها ارحب وبها مقاعد يجلس عليها الانسان

حين لا حاجة به الى النوم . وبها مروحة كهربائية ومنضدة صغيرة ودولاب صغير لانهاء الماء وما قد تريده من لبن او فاكهة هذا غير وعاء الفسيل التنظيف اللطيف

تحرك القطار في الساعة الثانية وما كاد حتى ذهبنا ننناول غداءنا في غرفة الطعام . وهي على مثال غرف النوم في كفاية الراحة والطمأنينة . والطعام فيها مثله في البواخر النبيلة اقرب للنظام الانكليزي في اصنافه . . والقائمون بالخدمة فيها كالقائمين بالخدمة في البواخر النيلية ، هم جميعا من اهل البلاد . لا تقع عينك بينهم على اجنبي يقوم بالرياسة عليهم . . وهم كزملائهم في مصر نظاما ونظافة وادبا .

ما يكاد القطار يترك حلفا (المعسكر) حتى ينطلق في (عطور) ابو حمد . وهذا العطور رمال تمتد امام القطار عن الجانبين حتى تلتقي بزرقة السماء الصافية عند الافق . ويتعد النيل عن سكة الحديد في استدارته الكبرى ما بين حلفا وابو حمد وتسير سكة الحديد في خط مستقيم وسط الرمال مدى يزيد على ثلاثمائة كيلو متر ، وفي هذا العطور ينطلق القطار مارا بمحطات لا يحيط بها الا بناء المحطة وبيت الناظر ومساكن العمال . وبين كل واحدة وما بعدها ما يزيد على ثلاثين كيلو مترا . وبيت الناظر ومساكن العمال - او تكلاتهم كما يسمونها في السودان - قد بنيت في شكل عجيب . فقاعدتها جدران مستديرة من الطوب الاحمر ترتفع عن الارض مترين او تزيد قليلا وفوق ذلك قباء على شكل قباء الصيوان حتى لتكاد تحسب صيوانا بالفعل لولا ما تبينه بعد اقترابك منه انه بناء غشى بالجير الابيض . وهو على هذه الصورة اكثر انقاء لسوائق الرمال ولما قد يندران تقذف به الصدفة من الامطار . وحوط بيت الناظر ومساكن العمال رمال العطور . فهم بذلك في وحدة دونها وحدة الناسك في صومعته . ويمر بهم قطار حلفا واخرطوم اربع مرات في الاسبوع ذهابا وجيئة فيحمل اليهم ارزاقهم .

ولما لم يكن حولهم من مظاهر حياة الانسان ما يلد لهذه الاماكن اسماء تذكر بحادث وقع فيها او برجل اسس اول عائلة عمرتها او بما سوى ذلك مما يبقى تاريخا لمظهر من مظاهر الحياة الانسانية فليست لهذه المحطات اسماء تتصل بهذا التاريخ . ولذلك اعتبرت نمراتبا عند حلفا بنمرة واحد ، وتنتهى قبل ابي حمد بنمرة عشرة . وعند نمرة ٦ تقف القطار طويلا لتبديل القاطنة وللاتصال بمناجم للذهب في ام نباردى حيث تقوم شركة انكليزية باستغلالها

ولا وسيلة لقطع الوقت وهذا التشابه يحيط بك الا ان تقرا او تتحدث الى من معك من المسافرين ، واكثر المسافرين معنا من الانكليز . وهم على رقتهم وظرفهم اكثر اتصالا فيما بينهم منهم بغيرهم ، على انى قضيت ما بعد العشاء الى منتصف الليل فى حديث طويل مع السيو السندرينى الذى قام باكثر اعمال خزان مكواري كما قام من قبل بحظ كبير من اعمال خزان اسوان

بقيت اتحدث والمسيو السندرينى حتى قلبنا منتصف الليل . وكان القطار ينساب فى ظلمة الليل الداجى زاده ظلمة ما يحيط بنا من انوار الكهرباء التى تحجب عنا ما قد يكون من التمايع النجوم فى السماء . وسألنا الخادم عن الوقت الذى يصل فيه القطار الى المعبرة فاذا هو يصلها فى الساعة السابعة صباحا . حينئذ قمنا الى مخادعنا بهزنا القطار حينما فيطير النوم من اعيننا ويغاب النوم علينا حينما فلا نحس باهتزاز القطار . ثم انبعثت من خلال النوافذ تبشير الضياء وجاء الخادم بشاي الصباح . وما كدنا نفرغ من تناوله ومن لبس ثيابنا حتى كان القطار قد بلغ المعبرة ليقف فيها ساعة كاملة .

عند المعبرة تلتقى سكة حديد (حلفا - الخرطوم) بسكة حديد (بور سودان - كسلا) . وفيها حركة كبيرة لسكة حديد حكومة السودان . بها ورشة للوابورات كاملة النظام

وبها كذلك عدد عظيم من الموظفين المصريين . بل لعل اكبر عدد من الموظفين المصريين بالسودان هم المقيمون بالعطبرة . لقينا جماعة منهم على رصيف المحطة برغم هذه الساعة المبكرة من الصباح فراينا منهم هذا البشر الذي رايناه في مصرى حلفا . واكبر موظف مصرى في العطبرة يتقاضى مرتبا ستة وثلاثين جنيها وهو وحده الذى يتقاضى هذا المرتب . اما من يليه في الدرجة فيعقاضى سبعة وعشرين جنيها ويلي هؤلاء من دونهم في الدرجة الموظفون .

وقام القطار من العطبرة الى الدامر فاجتاز نهر العطبرة على جسر (كبرى) متين حسن الشكل . ونهر العطبرة صغير كان مأؤه حين دنا به غائضا . ومن بعده وقف بنا القطار في الدامر عاصمة بربر .

في هذه المنطقة وما بعدها تبدأ زراعة القطن على المطر . لكنها هنا ليست متسعة النطاق وان كانت تؤذن بازدياد مطرد . ومن هذه المنطقة يسير القطار الى الخرطوم قريبا من النهر تارة ، بعيدا عنه طورا ، مخترقا صحراء جافة حينما فهى اقرب الاشياء شيها بالعطموور ، مارا بين اشجار متكاثفة اخرى محاذيا بعض المزارع الثالثة . وفي هذه المزارع ترى القطن وغير القطن من انواع الزراعة وترى الدوم والنبق وغيرهما من الشجر .

لشنا في القطار بين حلفا والدامر اكثر من ثمانى عشرة ساعة . وما تزال بيننا وبين الخرطوم ساعات ثمان . ومثل هذه السياحة الطويلة في سكة الحديد تعيد الى الذهن سياحات طويلة مثلها او اطول منها في اوروبا . لكن بين هذه السياحة الافريقية والسياحات الاوروبية فرقا كبيرا . فاكثر السياحات في اوروبا تمر بك بين جبال رفيعة وسط جو سريع التقلب وطبيعة لا يحول عبوس الجو دون ابتسامها ، واكثر السياحات في اوروبا تخترق سويسرا او غابة المانيا السوداء فتترك سفوحا ناضرة يفوح منها شذا العطموور ويبدو للناظر اليها جمال الزهر .

وهي بعد طبيعة لم تترك للطبيعة بل شارك الانسان الطبيعة في زينتها وفي جمالها فزادها زينة وجمالا . اما هذه السباحة الافريقية الطويلة فتخترق بك الصحارى النى لاحد لها ولا نهاية وتشعرك بالوحدة المطلقة وسط الفضاء الصامت لاتسمع فيه هسيسا ولا ترى فيه طيرا ولا حيوانا ولا ينبت في اكثره نبات ولا شجر . وما انبت لنباتات والشجر فينبتهما وفي كل قطوب الصحراء وعبوس الجبال لا يفل من غربيهما الا جمال الطبيعة الدائمة الصحو . افترانا وقد تخطينا العظيرة والدامروا صبحنا يقف بنا القطار او يمر على محطات ذات اسماء وذات تاريخ ويحيط بنا الوقت بعد الوقت شئ من الشجر قد صرنا الى منظر ذى بهجة يعوض ما مضى من عبوس وقطوب لا كان لنا في ذلك امل . لكنه سرعان ماتبدد وبقي لنا منه سراب هو هذه المزارع القليلة من القطن وهذه العابات ترعى فيها الابل ويجد فيها لبدولا غنامهم وماغزهم وابقارهم مرتعا . على ان لهذا السراب بهجته . ومن تلك البهجة اهل هذه المدن المستوحشة . فثولاءهم يقتربون من القطار كلما آوى لى احدى المحطات ويبدأ امرأة ابن رائب تبيعه ويبدأ غلام يعيش يعرضه لمن به جوع . ولعلك غير مستطيع وان وصفت لك هذا العيش ان تتصور ماهو . فرغيفه صغير الحجم منقوخ لاتدرى اهو من ذرة ام من شعير وغير اللبن الرائب وغير العيش يتجر بعض السودانيين احواسنا في سلال واسيات صنعت صنعا ظريفا من قش ملون . وهذه هى البضاعة التى يقبل عليها بعض السائحون ويجد لديهم سوقا رائجة . اما اللبن واما العيش فلا عيش لهما الا بين المسافرين من اهل البلاد

وهؤلاء السكان من طبقة العمال في السودان ليسوا جميعا أصليين فيه . بل بعضهم سكتاوية اثوامن سكتو واخرون فلاتة جاءوا من النيجير في صريقتهم الى الحج فوقفوا في السودان يستفون ما يقيتهم في هذه الرحلة الطويلة التى تكلفهم احيانا سنين

تباعا يقومون بها من قلب طبيب ونفس راضية راجين ان يغفروا لهم بعد اداء فريضتهم المقدسة ما تقدم من ذنبهم وما تأخر ومن هؤلاء الغلاته عدد عظيم يعوم بزراعة القطن وجنيه في اراضي الجزيرة . وعلى عملهم تعتمد حكومة السودان الى حد عظيم

الدامر عاصمة مديرية بربر . والقطن الذي يزرع في مديرية بربر وفي غيرها من مديريات شمال السودان يروى من مياه النيل الرئيسي . وطرائق ريه تختلف عما كان من زراعة الاهالي فنرويه السواقي . وما كان من زراعات الشركات فترويه الالات . وقد ذكر لي بعضهم ان المساحات التي تزرع قطناً في شمال السودان - اي فيما قبل الخرطوم - ليست كثيرة وليست بذات خطر والقطن الذي يزرع في هذه المناطق كالقطن الذي يزرع في الجزيرة يسلم الى الحكومة لتتولى بيعه بالطريقة التي تراها . وقد رأت انها مع ذلك قد صرحت لبعض رؤساء القبائل ذوي النفوذ بان يتولوا هم بيع اقطنانهم بانفسهم . وقد ذكر لي معرى من اليهود له متجر واسع للاقطن في ليفربول انه هو الذي يشتري اقطن هؤلاء المشايخ في كل عام كما يشتري قطن الحكومة . وان المشايخ الذين سمحت لهم الحكومة بهذه الميزة لا ينعون العشرة عدا

وتسعى حكومة السودان ليكون مستقبل القطن فيه ذا شأن عظيم .

وليست تقف زراعة القطن عند مديرية بربر بل تتعداها الى المديريات التي بعدها حتى الخرطوم ، وان كانت الاراضي التي تزرع قطناً ما تزال قليلة . وهذه القلة هي التي تجعل اهالي تلك المناطق ما يزالون بعيدين عن معاني الحضارة مستمسكين بتقاليد البدو الصحيحة ، على ان ما يجده بعضهم من الربح في زراعة الارض يجذب هذا البعض للاستقرار واستغلال الاراضي

انطلق القطار بنا الى شندي ومررنا بعد ذلك بالشلالات الثلاثة وصرنا نقترّب رويدا رويدا من الخرطوم بحرى . فلما بلغناها قابلتنا معسكرات واقعة على ضفاف النيل الازرق الى الضفة الشمالية وتمتد الى بعد منه غير قليل .

عن يمين الداخل الى محطة الخرطوم بحرى متسع كبير اعلى كورنتينة للحيوانات المسافرة الى مصر تبقى فيه الزمن الكافى لليقين بان ليس فيها ما يحمل الى مصر وباء او ضرا ، وتنتقل منها مباشرة الى القطار الذى يقلها الى حلقا فالسفين الذى يقلها الى الشلال

والى جانب هذه الكورنتينة مكان اعدته حكومة السودان لتربية الحيوانات . ولحكومة السودان فيما قيل لى عناية كبيرة بهذه التربية حتى لا تحتاج الى شراء خيل للجيش ولا تستعين من حيوانات الخارج . لانزرا القليل مما تحتاج اليه لاصلاح النجاج .

* * *

ينساب النيل لازرق بين الخرطوم بحرى والخرطوم . ويعبّأه القطار سوت جسر (كوبرى) عريض يتسع للقطار وللنرام والراكبين والراجلين . ثم يلتوى القطار بعد ذلك مارا بين لية غردون ومدارس الخرطوم المختلفة عن اليمين ومعسكرات الجيش البريطانى عن الشمال ويتابع التواءه حتى يصل الى محطته الخرطوم الرئيسية .

ونعم محطة الخرطوم فى مضاء من الارض لا يحيط به ما يشعر القدم معه بشئ من مباءة محطات العواصم . فالمباني الخاصة باعمال المحطة منزلة صغيرة قليلة الارتفاع كمباني محطات الاريااف العادية فى مصر . وليس لها من وجهة مباني محطات حلقا او محطة المعبرة كثير ولا قليل وخط الحديد لا يظله سقف ولا يحيط به من الافاريز ولا يتصل به من خطوط المناورات الكثيرة مما يرى عادة فى المحطات البرية . لذلك دهش من لم يعرف الخرطوم من

قبل أن تكون هذه محطة سكة الحديد لعاصمة السودان . على أن هذه الدهشة لم تدم إلا ريثما أخذت بالبصر زينات كانت تمتد الى مرمى النظر في طريق متسع يبدأ أمام المحطة . هذه زينات يوم الملك أعدت للاحتفال بعيد تذكّار مقدم جلالة الملك جورج الخامس الى الخرطوم حين عودته من الهند في سنة ١٩١٢ . وهذا الطريق الذي تمتد فيه الزينات هو شارع فندوي . وهو يصل مابين المحطة وسراى الحاكم العام كانت اساعه لرابعة حين وقف القطار في المحطة . وكنا قد امضينا ستا وعشرين ساعه من وقت ان غادرنا حلغا . ومهما تكن معدات الراحة بالقطار كاملة فالسفر قطعاً من العذاب . لذلك فرح المسافرون جميعا بلوغهم الخرطوم . ونزل كل يبحث عن البيت او الفندق الذى يأوى اليه ونزلت مع من نزل فالقيت جماعة من المصريين الذين عرفت من قبل وقوفا ينتظرون . فلما راوونى قابلوونى بالترحاب وانبشروا بما ادخل الى نفسى القبضة والطمانينة ثم غادرت محطة الخرطوم الى فندق جراندي حيث قضيت ايام مقامى بعاصمه السودان .

المخطوط للنظرة الأولى

قبل افتتاح السودان بقوات الجيش المصرى وبعض الفرق الإنكليزية فى العقد الأخير من القرن الماضى كانت أم درمان هى العاصمة الكبرى لهذه الإصقاع الترامية من أراضى القارة الأفريقية ، وكان يطلق عليها اسم عاصمة الدراويش وكانت ذات أهمية تجارية خاصة إذ كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من الأبيض وغير الأبيض من بلاد الداخل . فلما فتح السودان وجدلورد كتشنر المخطوط وفيها من التذكارات التاريخية للحملات المصرية الماضية ما يجعل حقا لها أن تكون عاصمة بدل أم درمان . وكانت قد خربت كل مخرب أثناء الحرب فلم يبق منها إلا آثار وأطلال . فجددها بهمة الجيش المصرى وقيامه بأعمال البناء وغيرها من أعمال التعمير . ومسعى سعيه لجعل أم درمان أثرا بعد عين . لكن أم درمان بقيت إلى يومنا مستقر تجار الواردات إلى السودان كما أن المخطوط أصبحت بعد بنائها وبعد امتداد خط السكة الحديد عندها مستقر تجار الصادرات من السودان .

ولقد روى المحدثون كثيرا من الروايات عن المخطوط وجعلوا منها مدينة غريبة بحتة . فشوارعها متسعة يزيد بعضها على الخمسين مترا ولا ينقص واحد منها عن ثلاثين مترا . ومبانيها منتظمة تمام الانتظام ، وفيها نور الكهرباء يضيء شوارعها ومنزلها ، وفيها المياه جارية فى كل المنازل . وهذه التفاصيل من صورة هذه المدينة التى اشتق اسمها من صورة النيل الأزرق المتلوى التوامر مخطوط القليل تترك في ذهن القارئ محلا لمقارنات

كثيرة . فهذه الشوارع الواسعة وهذه الانوار الكهربائية وهذا الماء الجارى اقرب ما يكون الى صور مدن المياه فى اوربا . ومدن المياه فى اوربا تجمع من معانى النعمة مالا يجتمع فى غيرها من المدن . فيها الحدائق الغناء وفيها أماكن النزهة والرياضة وفيها المجتمعات الزاهية الزاهرة ، وفيها كل ما يجلو صد النفس ويطردهموم القلب . اذن لابد أن تكون الخرطوم على هذه الصورة البسامة الجذابة . فطوبى لقوم جعلوا فى اقرب المناطق لخط الاستواء ما قصر عنه كثير من اهل مدائن المناطق المعتدلة .

وتدخل الخرطوم وهذه الصورة تملأ نفسك . فما يكاد القطار يسير بك نحو المحطة الوسطى - كما يسمونها - حتى اذا بك قد مررت - بعد تخطيك كبرى النيل الازرق بين الخرطوم والخرطوم بحرى - ببعض مبان للحكومة لا تحقق الصورة التى فى نفسك ولكنها مع ذلك لا تقضى عليها . فحول كليه غردون والمدارس المحيطة بها حدائق ظريفة تأخذ بالنظر . لكن بعدها فضاء صحراويا لا بناء فيه ولا ماء . وتلتفت وانت بالقطار يمنة ويسرة فاذا كل ما حولك مبان قليلة الارتفاع بنيت من طابق واحد . فاذا وقف القطار رايت ميدانا واسعا ليس فيه شئ يزينه ورايت امامه مثل تلك المباني القليلة الارتفاع وشعرت بهذه الصورة الجذبة المثلثة بها نفسك وقد بدأت تذبل وتضمحل . لكنك سرعان ما تشغل عن هذه الصورة وذبولها بمن تراه من معارفك واصدقائك الذين جاءوا الى المحطة ينتظرون هذا القطار القادم من مصر آملين أن يجدوا به من ريح مصر ما يسليهم وينعشهم وان يلاقوا بين الركابين هؤلاء المعارف الذين غابوا عنهم سنين بعد ان كانوا فى حياتهم جزءا غير قليل من هذه الحياة ، والذين اصبحوا بسبب هذه الغيبة ولوجودهم نائين عن القاهرة ومثلها من الاماكن التى عرفوهم من قبل فيها اقرب الى قلوبهم وافئدتهم ترى هؤلاء المعارف فتعز ايديهم ويهزون يديك بشوق ولهفة ويسألونك عن البلاد ما حالها وعم خلفت وما صار اليه امرهم ؟ فاذا فرغت من ذلك وفكرت فى اختلال

فندق تاوى اليه عاونوك برايمهم وبمساعدهتهم وبكل مايملكون من وسائل المعاونة ، واشهد لقدلقيت من رقتهم ما انسانى مشقة سفر ست وعشرين ساعة فيها ما فيها من مشقة برغم ما فى القطار من وسائل الراحة والطمأنينة

وعرفت ساعة وصولي المحطة احد كبار موظفى حكومة السودان من السوريين فلقينى بترحاب اى ترحاب وصحبنى فى سيارته الى جراندا اوتيل حيث نزلت . وماكاد يستقر بى المقام حتى جاء لزيارتى بعض اخواننا المصريين . وفيما كنت بالسيارة فى طريقي الى الفندق اظهرت دهشتى من هذه الصورة التى تبدت لى من الخرطوم والتى لا تتفق فى شئ مع ما كان مرتسما لها فى خيالى الشوارع واسعة حقا وعرضها يزيد على ثلاثين مترا . وفيها الكهرباء حقا تضيئها اذا جن الليل وولت موليات النهار . لكنها شوارع غير مرصوفة والتراب عن جانبيها كثير حتى ليغوص فيه عجل السيارة . ونحن على ما يظهر فى خير احياء المدينة الالهة باعظم سكان الخرطوم من الموظفين . ثم ما هذه المباني المحيطة بنا والتى لا ترتفع اكثر من طابق واحد او ما لها لا يحيط بها من نضرة الزرع وخضرته الا قليل ؟ ولم استطع اخفاء ما يجول بخاطري فسالت صاحبى ما بالهم لا يرصفون الشوارع . فكان جوابه ان قال : ان ذلك يكلف مليوناً من الجنيهات ولذلك تكتفى الحكومة بتسيير الواهورات الثقيلة فى القسم الاوسط من الشوارع الكبرى حتى يتمكن الناس من السير فيه

ازدادت الصورة التى كانت مرتسمة فى خيالى من الخرطوم ذبولا حتى كادت تصل الى حد القبح حين ذهبت فى ضبيحة اليوم التالى ارود انحاء المدينة فقد انحدرت الى احياء اعدت لموظفين اقل من الاولين درجة ولبعض اعيان المدينة ، كما انحدرت بعد ذلك الى الاحياء الالهة بالسودانيين وتجارهم والتى تقع بعد ميدان الجامع . وهذا الميدان فسيح متسع اعد لتقام فيه الحفلات ذات الصبغة الدينية واخصها حفلة مولد النبي

ومع ذلك فهو ميدان ترب تغوص القدم فيه الى حد يتعذر معه السير ويهد السائر التعب بعد قليل . فاما ما بعده من الاحياء السودانية البحتة فتتجلى فيها مظاهر الفاقة القاتلة . ترى فجوات مفتوحة في بناء منخفض هي حوانيت الصناعات والباعة . وترى في هذه الفجوات جماعة السودانيين جلوسا وعليهم ملابسهم البيضاء أصبحت سمراء من الشمس والتراب . وترى امامهم من صناعاتهم العنجريات والاحذية وغيرها من صناعات وطنية ضئيلة فاذا ازدادت تغلغلا الى ما بعد ذلك رايت حوانيت من القش يعمرها رجال لا يكاد يسترهم من الملابس الا قليل . ورايت بعدها « سوق النساء » عملت الشمس في وجوههن واساريهن فرسمت عليها من علامات البؤس واثار الشقوة ما لا تفهم معه كيف ترضى احداهن احتمال هذه الحياة القاسية لولا ما في الحياة من سحر خداع يفرى اشد الناس بؤسا وشقاء بأمل في يوم نعمة ورخاء . وتبيع هاتيك النسوة (الكسرة) . وهى نوع قبيح من الطعوم ، كما ييمن الفلفل وبعض الوان الشقاء مما يطعم الفقراء ولا تطاوعك نفسك لتشهد من بؤس هاتيك واولئك اكثر مما شهدت فتعود ادراجك طالبا بعض ما يروح عن نفسك وكان معى صاحب مصرى ظريف سار واياى الى ناحية الترام نركبه الى جهة (القرن) . والمقرن هو المكان الذى يقترب فيه ماء النيل الابيض بالنيل الازرق وتجرى عنده السفن التى تقل الركاب المسافرين بين الخرطوم وأم درمان . فقصدنا الى حيث محطة الترام وانتظرناه حتى اذا اقبل الغيتة تراما بخاريا تجره آلة ذات عجيج وضجيج ومن ورائها عربات عدة تكاد تبلغ الثمانى او العشر واكثرها قدر تقوم فيه مدرجات يجلس عليها ركاب الدرجة الثالثة وبه عربتان هما عربتا الدرجة الاولى مفروشة مقاعدها بجلدا ومشمع تود لو ان مكانه خشبا نظيفا .

اجتاز الترام بنا الخرطوم من طرفها الى طرفها الاخر . واجتاز بنا فى احياء تختلف نعمة وبؤسا، لكنه كان يسير فى شبه صحراء

قل ان تقع العين فيها على سائر فلما بلغنا مخازن الحبوب عند سكة الحديد وقعت العين على منظر ما احسبني رايت في الحياة شيئا اشد منه ايلاما ولا اكثر منه دفعا للاشفاق الى النفس. منظر لن يستطيع الخيال وان غلاوان بالغ في الفلو ان يصل الى تجسيد الالم الانساني كما جسده هذه الحقيقة الناطقة بكل معنى القسوة الانسانية

الى جانب مخازن الحبوب ميدان فسيح من تراب ضارب لونه الى لون الرمل . وفي هذا الميدان تمر الفلال من ذرة او شعير الى المخازن . وقد يقع منها في اثناء مرورها ما يختلط بهذا التراب

لم ار الحبوب تمر ولم ار ما سقط منها الى الارض واختلط بترابها . لكنى رايت امرأتين كل واحدة منهما عارية او تكاد فلا يسترها الا خلق قدر يغطي بعض اسفلها ويترك الظهر كله والاذرع والرأس مكشوفة للشمس وللhواء . وكانت كل واحدة مقمية كما يقمى الكلب وتنشئ الارض باظفارها . وقد احدثت فيها فجوة كبرى وهى ما تزال دائبة على النشش وتلقى ما بين حين وحين شيئا من التراب الذى يعلق باظفارها وييديها في غربال او منخل الى جانبها . سألت صاحبي : مبال هؤلاء النسوة اكبين على الثرى يحتفرن باظفارهن كما يحتفر الحيوان وجاره بمخلبه ؟ قال صاحبي وفي نبرات صوته رنة هم وشجن هن فقيرات لا يجدن قوتا ، وقد تعمل واحدتهن طفلا او اكثر ، وقد قبلن يحتفرن التراب آملات ان يجدن فيه من ذرة او شعير مما قد ينتشر ساعة حمل الفلال الى المخازن . فاذا ظفرت احداهن بما حسبه حبة التفت به في غربالها . وتظل كذلك يومها تحتفر القوت من تراب الارض احتفارا . فاذا خيل اليها ان قد اجتمع في غربالها بعض منه عملت لتنظيفه عل فيه ما يقيمها ويقيم من تعمل من طفل او يتيمة يوما وبعض يوم . وهن كذلك يلقطن ما لعانتهن القدر فاذا امطرت الدنيا وانقضى موسم الفلال فلهن ولن يعلن البؤس والويل



وكانت كل واحدة مقيمة كما يقى الكلب وتنبش التراب
ماظافرها آمنة أن نجد فيه حبة من ذرة

أى سواد لحظ الانسان كهذا السواد ؟ ! هو أسود من تلك الوجوه الشقية والظهور العارية والشعر الفاحم في تجعده والتفافه ذلك منظر دونه كل ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس . دونه هاتيك المتسولات يرتججن عطف كسريم ، او ياملن ان تمس توجعاتهن قلبا مكلوما يفيض حزنه سخاء . هو بؤس النفس التى تعف عن السؤال وترى في غايات الشقاء مع العمل نعمة الرفعة عن مسألة اللثام بل عن مسألة الكرام .

حدثت بعض المقيمين بالخرطوم بهذا وبمثله مما شهدت فيها فاذبل ما كان لها من صورة في نفسى . واجاهدت لاجد لذلك كله عذرا . فالخرطوم بلد جديد ، دخله الجيش المصرى ومن معه من فرق انكليزية سنة ١٨٩٨ ، فالفاه خرابا يبابا . ومن ذلك التاريخ اقيمت المدينة كلها بما فيها من معسكرات ومنازل وشوارع وطرق . رسمت ينوم رسمت على صورة الراية البريطانية لتكون مثالا للنظام الانكليزى الهادئ المطمئن . وقرست الاشجار فيها فنبت ما نبت منها واعيد غرس ما مات . والمدن كالاشجار لها حياة غير الصورة الظاهرة وغير حياة الجسم الذى يتشابه مع اجسام الغير في اكثر مظاهره . لها حياة الروح المستمدة من تاريخها ومما مر بها من محن وآلام ، ومن مسرات واعياد . وهذه السنون ليست كافية لتبعث الى مدينة من المدن حياة الروح ولتجعل منها ما يحدث النازل اليها بمعان تحدث بها المدن القديمة التى شهدت من غير التاريخ وعبره ماترك على كل جدار من جدرانها وحجر من حجارتها صحفا ناطقة بمختلف الصور والمعاني . فللخرطوم العمر ، وهى بعد بلد حديث ، اذا هى لم تحدثك بمكون حياتها وبلت لك كما تبدو للعين الدمعية صنعها الصانع على مثال غيرها من المدن ولم يكلمها الوقت بجراحه فيجعل لها معنى وقيمة وله جانب ذلك من اهداز ما فيها من بعض الجمال انما اعد بسع الحاكمين وذوى الامر فيها مما لا تزال مظاهره لذلك قاصره على الحي الذى فيه يقيمون .

فكان جواب بعض من تحدثت اليهم بما احسست به وبما التمسست للخرطوم من عذر ان قالوا ان فيما اقصى عليهم شيئا من الحق كثيرا وفيه من الغلو كذلك شيء كثير . فالخرطوم بلد حديث حقا . وليس بين سكانه من التجانس ما يجعل فيه وحدة الروح التي تقيم الحياة . ففيه الانكليز والسوريون والمصريون والاروام والسودانيون . وليس بين هؤلاء جميعا من الاختلاط ما يخلق روحا جماعية ترفرف على البلد كله ، بل لكل جماعة قوامها القومى والجنسى والدينى واللغوى وشوارع البلد على سبيلها لم تنظم بعد النظام الذى يجعل ساكن أوروبا وساكناً مصر يراها بالعين التى كان يظن ان سيرها بها . واحياء البلد ثلاثة . اولها الواقع على النيل الازرق مباشرة وهو اجملها واكثرها نظاما ، لا يقطعه من غير الانكليز الا السيد على الميرغنى باشا ، فله فيها قصره وله امام قصره ساقية بمائها الجارى . وثانيها مقام غير الانكليز من الموظفين ومقام بعض الانكليز الاصغر وبه تجارة الاروام والسوريين وما فى البلد من دواعى المسرة ، وثالثها مقام اهالى البلاد وبه الجامع وميدانه حيث يقام مولد النبى ، وبه ما سبق ان اشرت اليه من مظاهر البؤس والفاقة . لكن للخرطوم على الرغم من ذلك كله جمالا وللحياة فيها روعة لمن عرف معنى الحياة وروعتها

ولعل الانكليز اول من عرف كيف يجعل للحياة فى الخرطوم معنى وروعة منذ نزولوها . فقد اقاموا لكل منهم منزلا بما تحتمله كلمة منزل الانجليز

من المعنى . جعلوا فيه حديقة وملعبا للتنس ومقاما للطيور . وجاء كل واحد فى بيته من الحيوانات والطيور الليفة او التى يسهل تألفها كالغزال والبيغاء بكل ما تحتاج اليه للمراءى اوقات فراغه من غير ملال بل ببساطة ولذة . وقد وجد كل انكليزى من « منزله » الكامل الاداة ما يعوض عليه مشقات العمل فى هذا الجو الشديد الحرارة فى فصل الربيع وما يتسلى به عن

وحدثه وبعده عن بلاده . ثم لم يكفهم هذا فخلقوا ملاعب لهم يلعبون فيها كرة القدم كما اقاموا خارج المدينة ميدانا لسباق الخيل . ومتى تمت للانكليزي معدات الرياضة كمل له نصف نعيم الحياة . وهو واجد في بيته غير ما فيه من معدات الرياضة سكينه وطمأنينة . فاما ما بقي بعد ذلك من لذة الجماعة والتحدث الى الآخرين فميسر للانكليزي في ناديه بالخرطوم يذهب اليه كل مساء يقضى فيه شطرا غير قليل من وقته . وقد اخذ غير الانكليز مأخذ الانكليز ونهجوا نهجهم . فلكثير من الموظفين السوريين والمصريين في منازلهم ملاعب للتنس وانواع شتى من التسلية .

قالت سيدة سورية لها في الخرطوم ثلاث سنوات : لقد شعرت شعورك لاول ما نزلت الخرطوم . فلم يعجبني قفرها وصمتها الموحش . لكننى لم البث على ذلك الا قليلا . وما لبثت ان وجدت في منزلى وماحوله من حديقة وملعب وطير او حيوان سلوى حببت الى الخرطوم وجعلتنى ارى فيها متاعا وروعة

ولا ريب في احتواء ما يقولون على جانب من الحق كبير . فالبيت يشغل من حياة الانسان رجلا او امرأة حظا عظيما . فيه لمن عرف كيف يعيش فيه نعمة وسعادة . وليس البيت هذا الطابق الضيق في احدى العمارات المشيدة يحيط بساكنه عن اليمين وعن الشمال واعلاه واسفل منه من يرى ضرورة المحافظة على سكينتهم كى يحافظوا على سكينته ، ثم هو لا يجد بعد في هذا الطابق ما يعينه على مرجه ورياضته . انما البيت الذى فيه النعمة والسعادة هو ما اتسع لحديقة والملعب وكفل لصاحبه سداد ما يحتاج اليه وما يشتهي . وما اكثر ما تكفل بيوت الخرطوم هذه الحاجات

ويذهب القيمون بالخرطوم في تحبذ مدينتهم الى اكثر من هذا ، فهم يسألونك : الا ترى هذا الشارع الجميل الممتد على شاطئ النيل الازرق ما بين سراى الحاكم العام وحديقة الحيوانات

والواصل الى القرن ؟ الا ترى المباني على جانبيه تحيط بها خضرة الزرع الناضر وقد قامت فيها الاشجار باسقة فاشتملت اكثر المنازل حتى لتكاد تحجب القصر المنيف كوسجا في ظلال حديقة ؟ وفي هذا الشارع يقوم فندق (الجراندي) وهو يضارع ابهى فنادق العواصم العامرة بنظامه وظرفه وبالحديقة الغناء الواسعة المحيطة به . وحديقة الحيوانات الى جانبه فيها مسرح للعين ونزهة للخطر بما تحتوى من ضوار وكواسر ومن طسير ووحش وغزال . ثم ان بالخرطوم من اماكن التجارة مالا تطمع فيه مدينة في حجمها وعدد سكانها : فيها متاجر واسعة يرد اليها كل ماينتجه العالم المتمدن من انواع الصناعة ومواد الترف ، وبعض هذه المتاجر كبير الى حد يكاد ينافس معه اماكن التجارة الكبيرة بالقاهرة . وما عليك الا ان تزرع السوق لترى فيها محلا لدافس براين ينافس محلا لفائين الارمنى ، ولترى كذلك محلا لكباتو الرومى ولمرهج السورى ولترى غير هذه من الاماكن مالا تابى مصر القاهرة ان تنافس بمدائن العالم .

وليس للفسريب المنازل بالخرطوم ان ينعى عليها عدم توفر المجتمعات العامة بها . ففيها قهوات وبارات ومطاعم . ولئن كان هذا كله قليلا وكان غير ماهول فلان سكان المدينة قليلون لايزيدون عن ثلاثين الفا ولان اهلها اعتادوا عيش النوادي يجتمع الى كل ناد من اتفقوا جنسا ولغة ودينا ، فليس بهم الى هذه المجتمعات من حاجة .

وفي هذا الذى يقوله سكان الخرطوم جانب من الحق غير قليل . وفيه مايدل على ان النظرة الاولى لهذه المدينة الجديدة المختلطة تسرف في الانتقاص منها والجنابة عليها . لكن هذه النظرة الاولى تحتوى من الحق هى الاخرى جانبا غير قليل . فهذا النوع الذى يصفرونك من الطمانينة والسكينة قاصر على جماعة الموظفين والقائمين بامر الحكم . ولئن كان اكثر القيمين بالخرطوم موظفين وكان من بها من تجار ينتمى كل منهم الى طائفة يجد في الانتماء لها متاعه فانت لا تكاد تشعروا في

الخرطوم بحياة المدينة عنى مآثلها في العواصم التي تجمع الموظفين والتجار وارباب الصناعة والفن والعلم ومآثلها هذه الحياة من جو فكرى تنبعث فيه الآراء المختلفة متآزرة مرة متضاربة أخرى عاملة دائما للسير بالانسانية المحيطة بها في سبيل الرقى والتقدم

وهذا طبيعى ان كان السودانيون قليلين في الخرطوم جد القله ، وكانت حياة الطائفة الراقية منهم متصلة بالحكومة اتصالا له من الصبغة السياسية اكثر مما له من اية صبغة أخرى . ذلك بان ام درمان ما تزال للسودانيين هى المأوى وهى الملجأ . اليها تحن قلوبهم لانها عاصمة اسلافهم وان كانوا لا يملكون الدفاع عنها لتكون عاصمة الجميع وملجأهم ومأواهم .

هذه الصورة الخاصة بالخرطوم ترجع على ما ذكرنا الى انها مدينة جديدة لما تمض خمسون سنة على عمارتها للمرة الاخيرة ، والى انها بنيت هذه المرة الاخيرة لتسد حاجات المستعمرين ولتقدم اليهم ما يستطاع من مواد النعمة والترف ومن اجل ذلك لا يستطيع النازل بالخرطوم ان يرى هنا ما يكشف له عن معنى الحياة الوطنية في هذه الربوع المترامية الاطراف . وانت اذا اردت ان تعرف شيئا من معنى هذه الحياة فلا سبيل لك الا ان تقصد الى الدير حيث تقوم « تكلات » السودانيين المبنية من الطين والقائمة في « ديم » الوطنيين ترى شبة الحياة السودانية المحيطة بالخرطوم .

و « الدير » يبعد عن الخرطوم مدى غير قليل . وهو بعيد الى ذاكرتك حين تراه صور « العزب » القديمة التى يقطنها « التلمية » والمستأجرون في ارياف مصر . والدير كالعزب القديمة لامنافذ لمنازله المكونة من غرف ارضية بابها هو الفتحة الوحيدة فيها . منه يدخل الهواء والنور والشمس كما يدخل الناس والدواب .

ولما كانت الخرطوم مقام المستعمرين ومن احاط بهم من التجار الاروام والسوريين ومن لاذ بهم من بعض السودانيين فالحياة فيها اقرب للحياة الغربية في كثير من مظاهرها . وانك لترى



وعلق على صدور أعيان السودان الصالحين أوسمة صيغ أكثرها
صلباناً ماكانوا ليرضوا أن تمسها أيديهم لولا أنها تحمل معنى
الشرف والتقدير

متاجرها متسعة على طراز المتاجر الأوروبية كما ترى أكثر التجار فيها أشد بالأوروبيين اتصالاً . وفي سبيل هذه الحياة الغربية يرضى المقيمون بالخرطوم أن يجطوا للحوم والفواكه والخضر المحفوظة في علب الصفيح أو الزنك حظاً كبيراً في قوام حياتهم ، ورغم ما يمكن أن يعترض به أولو العلم في شؤون الصحة على هذه الأطعمة المحفوظة ، ورغم ارتفاع ثمن هذه المواد التي ترد إلى الخرطوم من بلاد بعيدة . لكن لاهل الخرطوم في انخفاض ثمن الحاصلات الأخرى التي تنمو وتربى في البلاد نفسها ما يعوضهم بعض الشيء عن غلاء ثمن الواردات وما يخفف بعض الشيء كذلك من الاعتراضات الصحية التي يطعن بها على الأطعمة المحفوظة . فالنم والديكة الرومية وكلاهما طعام صالح شهي رخيصة غاية الرخص . فريال يكفي ثمن « لاويزي » لذيد أو لديك زومي أكثر منه لذة . ويرى بعض اخواننا المصريين المقيمين بالخرطوم والمتفنتين في الطعام أن الديكة الرومية تحتاج بعد أن تشتري بهذا الثمن البخس إلى زمن تقيمه بالمنزل لتسمن وتلد . لكن الأكثرين يرونها لذبة من غير حاجة إلى هذه العناية .

أما الخضر والفاكهة فتادرة جد الندرة في الخرطوم وفي السودان جميعاً حتى لتقطع في بعض الفصول انقطاعاً تاماً وحتى لترى الوارد منها من الخرج تتخاطفه الأيدي قبل أن يصل إلى الأسواق . ولذلك كانت للحوم الغداء الأساس للمقيمين هناك ، وكان لها عليهم من الأثر المأهلاً على أكلة اللحوم لولا حضارة أشربتها دماؤهم أجيالاً طويلة فلا تستطيع شهو أو سنوات أن تقتلها من طبائعهم اقتلاعاً .

على أن الخرطوم تمتاز مع ذلك كله بأنها مقر حكومة ذات نشاط عظيم . فإذا كانت مدينة تنقصها حياة المدينة وينقصها تاريخ الدائن فهي مستقر نشاط كبير للموظفين من اجناسهم المختلفة . وهي لذلك أكثر شبيها بالمعمل *Laboratoire* وهذه الصورة منها ليستحق أن تكون موضوع بحث مستقل وعناية خاصة .

عبد الملك (أول ملك)

أثر تتويج صاحب الجلالة جورج الخامس ملكا على انكلترا في أواخر سنة ١٩١١ سافر على عادة أسلافه ليتزوج امبراطورا للهند . وفيما هو في طريق عودته مر بالسودان وزار الخرطوم في ١٧ يناير سنة ١٩١٢ . وقد اعتبرت حكومة السودان هذه الزيارة بمثابة تتويج لجلالته امبراطورا للسودان واعتبرت يوم ١٧ يناير يوم عيد رسمي كإذنه عيد جلوس جلالته على عرش السودان . ففي هذا التاريخ من كل عام يرسل حاكم السودان العام برقية الى جلالته بالنيابة عن أهالي السودان يعرب لجلالته فيها عن تعلقهم بعرشه واخلاصهم له فيرد جلالته شاكرا أهالي السودان مظهرا حرصه وحرص جلالته الملكة على رغد السودان وتقدمه . وفي هذا التاريخ من كل عام تقفل دور الحكومة وتزين الخرطوم بزيينة العيد ويقبم الحاكم العام بسرايه حفلة شائقة توزع فيها الأوسمة التي تمنحها حكومة ملك انكلترا على رعاياها من أهل السودان اعترافا بولائهم وتقديرا لاخلاصهم ولما يقومون به من جليل الخدمة للسودان وللإمبراطورية

وصادف أن كان يوم ١٧ يناير سنة ١٩٢٦ يوم أحد ، فتأجل الاحتفال بعيد الملك الى يوم الاثنين بعده . ولما كان مندوب انكلترا السامي لمصر والسودان قادما لافتتاح خزان سنار فقد جعلت حفلة هذا العيد التي تقام في سراي الحاكم العام تحت إشرافه ورعايته . يوزع هو فيها ما تمنح به الحكومة البريطانية من الأوسمة ويقوم من المراسم بما تقتضيه هذه الرعاية . وسراي الحاكم العام جديرة بأن تقام فيها مثل هذه الحفلة

وما هو افخم منها . فقد اقيمت على اثر فتح السودان في اواخر عام ١٨٩٨ حيث كانت تقوم السراى التى قتل دراويش المهدي فيها غردون باشا والتي كانت مقر حاكم السودان من قبل مصر . وقد روى في اقامتها ما يجب لها من العظمة والفخامة . وهى تطل بمبانيها على النيل الازرق ، ولها عند بابها البحرى . وتطل من الجهة القبلىة على متنزه واسع الارحاء مترامى الانحاء بديع النظام يقوم في آخره ابواب القبلى المؤدى الى شارع فكتوريا فالى محطة الخرطوم .

وانت اذا دخلت الى السراى من جانب النيل الازرق قبالك لاول تخطيك الباب دهليز متصل به غرفة انتظار من ناحية وتتصل به من الاخرى غرف عديدة متداخلة اعدت لموظفى الحكومة المتصلين بالسراى . وجدران هذا الدهليز مزينة كلها بعمدة الحرب وآلته . فمنها قبعات وحرايا مختلفة اللون والشكل ، لكنها جميعا قبعات الفرق الانكليزية وحراياها . وعلى الجدران رايات الفرسان الانكليزية . فاذا انت تخطيت الدهليز وجدت اقفا عليه دهليزا اخر طويلا يمتد من الجانبين الى ناحيتى السراى الشرقىة والغربىة . ويطل هذا الدهليز الافقى على ساحة يقوم على جانبيها جناحان خصص احدهما للحاكم العام واهله وجعل الاخر لضيوفه . والدهاليز والفرف والاجنحة كلها باديت الفخامة والمهابة . ومن فوق السراى يرفرف العلمان المصرى والانكليزى .

اما حديقة السراى او بالاحرى متنزهها فقد فرشت ارضه بسندس الجازون والحشائش الصغيرة وقامت في جوانبه وفي اواسطه اشجار باسقة كان ورقها في هذا الفصل الذى يذبل فيه ورق الشجر في مصر ويتعمرى من كل ورق في اوربا اخضر ذا رواء وبهجة . ولا عجب ، فاجمل ايام السنة في الخرطوم هى ما يقابل ايام الشتاء . وما بالك بطقس نهاره نهار الربيع وليلته اخريات الصيف وكل ما فيه من مظاهر الحياة بسام بديع الابتسام .

اصبحت الخرطوم يوم الاثنين اذن في لباس العيد . كانت الرايات والاعلام ترفرف في شارع فكتسوريا وفي مقدمة بعض الحوانيت والمتاجر . وكان الحاكم العام قد دعا الى حفلة شاي تقام في سرائه بعد ظهر ذلك اليوم عددا يزيد على الثمانمائة من بينهم مائة وعشرة من اعيان السودانيين ورؤساء القبائل والعشائر فيها ممن لا يقيمون بالخرطوم كمادعا اعيان السودانيين بالخرطوم ودعا كبار الموظفين وكل ذي مكانة من غير السودانيين . وبهؤلاء وبزينة العيد خرجت المدينة من صمتها الموحش بعض الشيء . وكان اعيان السودانيين في جيبهم الحمراء والزرقاء المطرزة بالذهب وبسيوفهم الموهة اغمادها بالذهب كذلك اكثر ما خلع على منظر العيد بهجة وزينة .

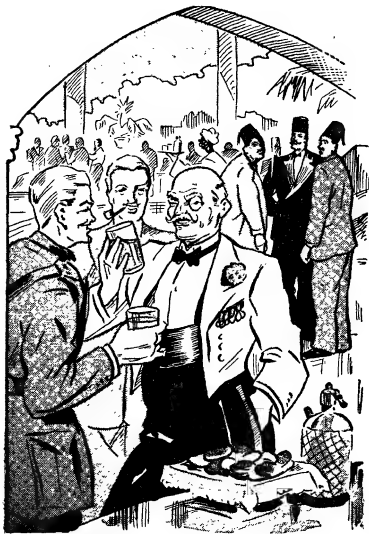
في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم استقبل الحاكم العام وقليل من رجاله اللورد لويد مندوب انكلترا السامي الذي وصل ساعتئذ محطة الخرطوم قادما من مصر ثم قصد واياه سرائه . ولم يكن في انتظاره بالسراى غير عشرة من اكابر اعيان السودان صافحهم المندوب السامي وقربنته ثم صعدا الى غرفهما .

ولما كانت الساعة الرابعة قد حددت موعد الحفلة الشاي حيث يقدم المندوب السامي اوسمة الشرف لاربابها هرع المدعوون الى سراى الحاكم العام ، خوالى هذه الساعة ، ومنهم جماعة « الرسميين » ارتدوا ملابسهم الرسمية وتقلدوا نياشينهم واوسمتهم ، ومنهم اعيان السودان تقلدوا فوق عباةئهم الحمراء او الكحلية المطرزة بالقصب المذهب وبسيوفهم الموشاة الاغماذ بوشى الذهب والفضة ، ومنهم غير الرسميين وغير اعيان السودان من ذهبوا في ملابس كل يوم . وبذلك كانت حديقة السراى معرضا لاكثر ما يمكن ان يتصوره الخيال من الازياء ثمنا واختلافا . فكانت ترى الردنجات والطربوش لبسه الموظفون في الحكومة المصرية من المصريين والانكليز وقد حلى كثير من منهم صدورهم بالنياشين المصرية . وكنت سرى مدبى

موظفى حكومة السودان المدنيين اتخذت من القماش الابيض وفصلت على صورة « الجاكت » والعمامة والقفطان والجة تردها الموظفون الشرعيون كالتقضاة والمفتى وواحد او اثنان غير هؤلاء . والفراك او البنجورومعها القبة العالية على بعض اعيان السورين او الاروام من التجار والمقيمين بالسودان . وجبب حكومة السودان الرسمية على اعيان السودان . وبين هذا الجبع المتقمش باردية المقابلة عدد كبير فى الزى العادى على مختلف اشكاله والوانه .

تزامحت هذه الازياء المختلفة المتناقضة المجتمعة فى هذا المكان وجعلت تدافع نحو ساحة السراى . ذلك ان الحاكم العام والمندوب السامى جلسا الى منضدة فوق هذه الساحة وجلس حولهما ضيوفهما . كذلك جلس عدد كبير من الموظفين والاعيان الذين تقرر الانعام عليهم بالاوسمة الى جانب من الساحة المحاطة بداربزون والمرتفعة فوق ارض الخديقة بدرجات . وكان الحاكم العام قد وقف يتلو البرقية التى ارسل بها جلالة ملك انكلترا بالنيابة عن اهالى السودان ورد جلالة الملك جورج عليها . فلما اتم تلاوته وترجمها فضيلة مفتى السودان وزع المندوب السامى الاوسمة على اربابها . ومشاهدة ذلك كله هى التى ادت الى ذلك التدافع بالمناكب بين كل تلك الازياء .

لذلك ما كادت هذه المراسم تنتهى حتى انفرط عقد المناكب المتراصة وانقلب مدها نحو ساحة السراى جزرا فى انحاء الحديقة الواسعة . ونزل المنعم عليهم من عليتهم وانخرطوا فى سلك المدغوين تمزهم اوسمتهم . وحدث نزولهم الى الناس شيئا من الحركة سببها اسراع الناس اليهم يهنئونهم بما حازوا من فقة عالية . فكانت الايدى تتصافح والشفاه تبتسم وحدق عيون المنعم عليهم يلمع بمعانى القبضة والرضا وتنخفض جفونهم احيانا فى صورة التواضع والحياء ممط تبتهج به آذانهم من عبارات تقدير المهنئين وتمنياتهم « الخالصة » لهم دوام الرفعة ومثوية رضا الحاكم . على ان نظر الغريب عن الديار كان



كان الانجليز فرحين ، اما المصريون فكان يخالجهم شعور
الاسف وتائب الضمير

يستريحه ما علق على صدور اعيان السودان الصالحين من
اوسمة صيغ اكثرها صليانا ما كانوا ليرضوا ان تمسها ايديهم
لولا ما لها من معنى التقدير والتشريف . ثم ازداد العقيد
انفراطا وقصد كل الى مائدة من موائد الشاي المبعثرة على نظام
ظريف في انحاء المتنزه الجميل

كان اهل السودان في ازياتهم المطرزة اكثر استرخاء للنظر من
كل من سواهم . ذلك بانهم اهل البلاد وروح هذا الجو الصحوي
الذي يظلنا . على ان استرخاءهم لنظر الاوربيين كان راجعا لغرامة
ازياتهم وحالتهم اكثر منه الى اى معنى نفسانى خاص . أما
الشرقيون عامة وابناء وادى النيل خاصة فكان للمعنى
النفسانى عليهم اكبر الاثر . ولا عجب . فبين الغربى والسودان
من الفوارق في اللون واللباس واللغة والدين والعوائد والعقائد
ما يجعل السودانى امام الاوربى لغزا تتلهى عيناه بصورته
الظاهرة ويعجز ادراكه عن استكناه ما تنطوى عليه روحه
ونفسه الدخيلة من هزات ينبعث منها تقديره للحياة وغايته منها
وفهمه معناها . لما الشرقى فيدرك غير قليل من هذه الهزات
الدخيلة لانه يشارك السودانى فيها كما يشاركه في اصل جنسه
وفي لغته وعاداته . واما بين النيل فيسترعى السودانى نظره
كما يسترعى نظرك قريب او انخراط عنك سنين طوالا فاذا رايته
ورايته ابناؤه واقاربه شعرت بين اضالك بشوق وحنين وحدقت
عينك بهؤلاء الابناء والاقارب الذى يجرى في عروقهم الدم
الذى يجرى في عروقك وتلدعهم الالام التى تلذعك وتنبض قلوبهم
بالامال التى ينبض بها قلبك

احاط ببعض موائد الشاي جماعة من هؤلاء الاعيان من
اهالى السودان . وكان معى صديق سودانى عرفته يوم تولت
الخرطوم له بكل هؤلاء الاعيان صلة ومعرفة ، فسار واياى
يحدث بينى وبينهم من التعارف ما يسمح به المقام . ولقد
شعرت واحسبهم شعروا أثناء هذا التعارف القصير باحساس
الاحتياط والحذر الذى لاحظته على اخواننا المصريين من قابلونا

في حلها وفي العظيرة وفي الخرطوم فلم يزد ماتبادلنا وجماعة اعيان السودان في حديقة سراي السير جوفري آرشر حاكم السودان العام على عبارات التحية البسيطة وربما كانت هذه مبالغة في الحذر لا يقتضيها الموقف . لكنني كنت من ضيوف حاكم السودان العام فكان واجبا ان ارعى لهذه الضيافة كل حقوقها .

وجلسنا الى مائدة جلس اليها السيد احمد الميرغني وفضيلة مفتي السودان وجماعة آخرون كانوا كلهم مثال الرقة وحسن الضيافة . وفيما نحن جلوسا قبل السير السيد علي الميرغني باشا فقام الجمع تحية له واجلالا واقبل كل من الحاضرين عليه بقبل يده . وجلس الى جانبي في وقار وهيبة وفيما هو جالس كان اعيان السودان يقبلون عليه وينحنون على يده يقبلونها ظاهرها وباطنها ويرجونه الرضى عنهم وحسن الدعاء لهم . وكانوا كذلك يقبلون يد اخيه السيد احمد . لكنني اشهد اني ماريت ايمانا كهذا الذي رايته مرتسما على وجوه هؤلاء الناس باديا في نظراتهم متجافيا في كل حر كاتهم حين اقبالهم مشرعين في خشوع واجلال يقبلون يد السيد علي وينظرون من طرف كسير نظرة كلها الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . ومن هؤلاء الاعيان شبان تلوح عليهم مظاهر القوة والاعتداد بالنفس ، ومنهم كهول وشيوخ ترى على عوارضهم من الشيب بياضا في سواد ، ولكل من هؤلاء الشبان والشيوخ سلطان على من يدينون له من القبائل والعشائر لكنه يتقدم بهذا السلطان امام السيد علي وهو مؤمن بان كلمة الرضى من لدنه اقوى من كل سلطان .

والسيد الميرغني احترام خاص لمكانته هذه عند التازلين في السودان من كل الاجناس والطوائف . ويزيد في هذا الاحترام ماله من صفات تعلو على من يتصل به اكباره وحسن تقديره . وهو نحيف قصير القوام دقيق تقاطيع الوجه تنم عيناه ببريقهما الشديد عن كثير من الذكاء والدهاء وتطوق ثغره العربي الرقيق الشفتين ابتسامة دائمة تجعل محياه الجذاب دائم الاشراق . وتعلو جبينه قلنسوة

اقرب في صورتها الى القلبى التركى القديم الذى كان يلبسه انور باشا وان لم تكن سوداء مثله بل اجتمعت عليها صنوف من الوان سوداء ومذهبة متوازية متقاطعة . ويحيط بالقلنسوة عمامة يصعب تحديد لونها لكن لها مع لون العمامة اتساقا وتجاوبا حسنا . اما قفطانة وجبته فعلى صورة ما يلبسه شيوخنا مع شىء كثير من الاحتشام فى ألوانها .

ومع ما كان باديا من الجبور والبهجة على المنعم عليهم بالاوزمة والرتب من اعيان السودان وموظفى حكومته فلا ريب ان أشد من كانت علائم الغبطة بادية عليهم فى هذه الحفلة هم الانكليز سواء منهم من كانوا فى حكومة السودان ومن كانوا ضيوفا او سائحين اما المصريون فكان يخالج نفوسهم شعور مبهم يختلط فيه الاسف بالام بتأنيب الضمير . وكنت تراهم يسير كل منهم منفردا اكثر الوقت وينظر الى ماحولة بعين الغريب الحائر . ولم يشذ اثنان من الباشوات المصريين نزل اضيؤفا بسرارى الحاكم العام عن هذه القاعدة .

وحوالى منتصف الساعة السادسة نزل لورد ولادى لويدي من ساحة السراى الى الحديقة ومعهم احاكم السودان العام وبعض الموظفين ، وجعل اللورد وقرينته يطوفان بالحاضرين عموما واهل السودان خصوصا يتعارفون بهم ويصافحونهم بدا بيد . قال صديق :

- ان كل شىء يصاح مستحب مادام فيه خدمة للامبراطورية ولادى لويدي على رقتها واتصالها بالعائلة المالكة فى انكلترا تسعد بمصافحة ثمانمائة يد مادام فى ذلك للامبراطورية سعادة وعظمة كانت الشمس قد انحدرت الى المغيب فبدا الناس ينصرفون جماعات بعضها اثر بعض . وانصرفت ومن معى ميممين احد الاندية ونحن نذكر عيد الملك يقام فى الخرطوم تذكارا لمرور جلالة ملك انكلترا بها وفيما نحن فى حديثنا حانت التفرقة من احدنا الى اعلى سراى الحاكم فرد طرفه الينا وقال :

- على كل حال فما يزال العلم المصرى خفاقا الى جانب العلم البريطانى فوق السراى . وفى هذا لنا بعض العزاء عن أن يكون ملك مصر فى الخرطوم عيد كعيد ملك انكلترا .

مقدمة السودان في الخرطوم

في مقدمة كتاب لورد برزمر المعنون « عباس الثاني » عبارة يحسن الوقوف عليها لحسن تقدير وسائل السياسة البريطانية في بلوغ غاياتها وحسن ادراك ما تبديه حكومة السودان في الوقت الحاضر من مظاهر النشاط . قلل اللورد :

« ان حجر الزاوية في سياسة مصر والسودان ان نضع محلا الاعتبار ان ليس ثمة رابطة بين الحاكم والحكوم عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات الاجتماعية الا المصالح المادية . واعظم هذه المصالح خطرا ما كان متعلقا بالاعباء المالية . . لذلك تدعونا كل الظروف السياسية الى ان نخضع جميع الاعتبارات الى ضرورة عملة هي الحرص على تخفيض الضرائب وعلى المسؤولين عن ادارة مصر والسودان ان يعتمدوا على انفسهم في تنفيذ سياستهم على القاعدة المشار اليها . فقليل من بعضدهم في هذه السياسة . ذلك بان الاقتصاد ليس امرا مرضيا عند الناس . وكثير من يوجه اليهم جرح النقد . وهم لا يستطيعون الاعتماد الى حد كبير على تأييد الرأي العام المصري او البريطاني . فلانجليز يميلون عادة الى الاخذ بما سبق الاخذ به في انكثرتا من اعمال وتجارب . وقد تزايدت نفقات الدولة عندهم اخيرا الى حد كبير وفقلت الاعباء العامة الملقاة على عاتقهم الى حد كانوا يحسبونه مستحيلا منذ وقت قريب . وكان من اثر ذلك ان ساء تقدير الرأي العام للاقتصاد وان تلبذ الشعور القومي الى حد ما بازاء ادارة الشؤون المالية في البلاد الخاضعة لانكثرتا »

« ولن ينفك كثير من كبار الساسة الإنكليز ولن تنفك الصحافة القوية السلطان عن مواصلة جهودهم في الحث على انتهاء التعليم ونشره في مصر اذ يرونه الأساس الاول لبناء الحكم الذاتي . اما انا فلا اظن ان مثل ما يلقي في المدارس والكليات من تعليم كان ليعد المصريين يوما ما لحكم انفسهم ما لم يحوروا طابعهم القومي مما لا يتم الا تدريجا . وهذه ليست نقطة البحث الان . فانما اريد ان ابحث في نفقات التعليم وان ابن سوء الراى في التوسع فيه الى حد فرض ضرائب باهظة .

« وثمت هجمات من نواحي اخرى يجب صدها . فقد بلغ الادارى الفيور ، الذى يقدر ما يستطيع القيام به من خير ، في زيادة الطرق والكبارى والمستشفيات وسائر معدات المدنية الحديثة ثم يجهل ، مع الحاحه ، النتائج البعيدة التى تترتب على ما تحتاج اليه سرعة تحقيق هذه المشروعات من طائل النفقات

« لذلك يحسن بالساسة المسئولين عن شئون مصر والسودان ، بالغا ما بلغ عطفهم على هذه المشروعات حين مجرد النظر الى مزايها ، ان يبعدوا عن الساسة الخياليين ابتعادهم عن رجال الاداره في الدواوين ، وان يرجئوا ما يستلحق طائل النفقات من تلك المشروعات التى تستهويهم حتى يثقوا بان موارد الدولة تحتلها دون ان يشغلوا كاهل الجمهور بالضرائب . ليشجعوا انتشار التعليم وخصوصا التعليم الصناعى وتعليم الاناث . وليشجعوا كذلك المشروعات العامه وغيرها من اسباب التقدم على ان يكون هذا التشجيع بمقدار لا يقتضى الانجاء الى فرض ضرائب جديدة ثقيلة » .

ليس بين الحاكم والمحكوم ، عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات ، غير الرابطة المادية . هذه كلمه لورد كرومر التى تلخص كل ما جاء في العباره التى نقلناها بل التى تلخص الى حد كبير سياسة انكثرا في مستعمراتها وفي البلاد التابعة لها . وهى التى تجعل هذه السياسة الاستعمارية البريطانية

امتيازاً وتفوقاً على غيرها من سياسة الدول الاستعمارية
الآخري . فليس من أغراض السياسة البريطانية الأساسية
ان تنشر الثقافة الانجلوسكسندية في البلاد التي تحكمها . وليس
من غرضها ان تنشر فيها مبادئ الثورة الفرنسية ولا ان تحمي
فيها الهيئات الدينية المسيحية . كل ذلك قد يحدث بطبيعة في
النفوذ الانكليزي . لكنه ليس غرضاً أساسياً معصوداً لذاته .
انما الغرض الاساسي هو تلك الروابط المادية بين انكلترا وسائر
اجزاء الامبراطورية . ولتكون هذه الروابط متينة مأمونة
العواقب يجب ان لا تكون فائدها لانكلترا وحدها . بل يجب ان
تشعر البلاد المحكومة بان لها من ورائها فائدة محسوسة . بل
مظاهرها نقص النفقات العامة نقصا يترتب عليه تخفيض
الضرائب وزيادة رفاهية المحكومين زيادة تشعرهم
بالطمأنينة الى حاكمهم .

وقد اتبعت هذه السياسة في مصر بدقة تامة مدة وجيد لورد
كرومر بها . ويمكن ان يقال انها اتبعت الى ما قبل الحرب العالمية
الاولى . . لكن هذه الحرب أدت الى انقلاب كان من ورائه ان غير
المصريون من طابعهم القسومي على ما ورد في عادة لورد كرومر
.. وكان من وراء ذلك ان انزاع استقلال مصر . اما السودان
وحكومته في الخرطوم فما تزال السياسة الجارية فيه هي هذه
السياسة التي رسمها لورد كرومر في كلمته السابقة .

فمع ان كثيرين من المقيمين بالخرطوم يشكون من فداحة
الضرائب التي يؤدونها ، والتي تبلغ ربع قيمة ريع المباني القائمة
بها ، تعمل حكومة السودان على ان تكون الضرائب في سائر أنحاء
البلاد مخفضة حتى لا يشعر اهل السودان بثقلها . وليس يضير
السياسة البريطانية ان تكون ضرائب الخرطوم فادحة واكثر
المقيمين في الخرطوم ، كما رايت من قبل ، ليسوا سودانيين ، بل
اكثرهم موظفون وتجار من المصريين والسوريين والاردن
وغيرهم . وهؤلاء لا ينشئ من الخطر في ان تصي

الحكومة بتخفيض الضرائب التى يدفعونها ويكفيهم أن تعنى بتوفير كل اسباب الراحة والطمأنينة لهم وتخفيض الضرائب بالنسبة لاهالى السودان انفسهم موضع عناية دائمة . وقد عهد بها وبنظام اعباء السودان المالية وميزانية ايراداته ومصروفاته الى لورد شستر احد اكابر الاقتصاديين والماليين الانكليز . وبرغم ما ابداه من ميل الى ترك هذا المنصب الشاق فان رجاء حكومة السودان اياه أن يبقى لمصلحة السودان ولمصلحة الامبراطورية كان اكبر على نفسه اثرًا من ميله الخاص فبقى بالخرطوم ينقأ أكثر بكثير من المرتب الضخم الذى يتقاضاه راضيا بالحياة فى هذه البلاد القاصية ليخدم الامبراطورية وليخدم السودان معها .

وتخفيف عبء الضرائب يترتب عليه نقص فى ايراد الخزانة العامة فاذا لم يقابل هذا النقص بموارد اخرى تدر ضرائب مباشرة او غير مباشرة تعذر على الحكومة القيام بواجبها . وميزانية السودان تزداد عاما بعد عام بسبب الموارد الجديدة التى ماتفتأ حكومة السودان تسعى لخلقها . لتكفل استقلال السودان عما كان من قبل فى حاجة اليه وما كانت مصر تؤديه له . وقد بدهشك أن تكون زيادة السكان من بين هذه الموارد الجديدة ، كما أن زيادة نشاط السودان منذ زمان بعيد بتوفيرهما من طريق توفير اسباب الصحة فى البلاد . فقد كانت حمى الملايا ما يفتك بالسودانيين فتكا ذريعا وما يضعف فيهم اسباب النشاط وما تزال هذه الحمى منتشرة فى بعض انحاء السودان . لكن الحكومة قاومتها فى مناطق كثيرة مقاومة شديدة انتجت ابادتها فى هذه المناطق اباداة تامة . وما تزال الحرب المعلنة على الملايا ناشبة وما تزال حكومة السودان تعمل على مطاردتها لمضاعفة عدد السكان ولضاعفة نشاطهم .

كذلك عنيت الحكومة بمحاربة الزهري المنتشر فى السودان انتشارا مروعا والدئى يجنى على الاعقاب جناياته على الجيل الحاضر وانك لتعجب اشد الاعجاب بما يبدى الحكومة من نشاط وعناية

في هذا السبيل . فهي تعالج المرضى بأجر زهيد الى حد يجعله في حكم المجان . تنتشر الدعوة لهذا العلاج في طول البلاد وعرضها بمختلف الوسائل . واطباء الحكومة من السوريين وغير السوريين المنتشرين في اقاصى هذه البلاد الشاسعة يعاونون الحكومة المركزية بالخرطوم في هذه الجهود خير معونة .

ومن طريق زيادة السكان وزيادة نشاطهم ترجو الحكومة ان تجد اليد العاملة بمقدار كاف لنشر زراعة القطن في البلاد . فملايين الافدنة في الجزيرة الواقعة بين النيلين الازرق والابيض صالحة لانتاج القطن كمان ان اراضى واسعة أخرى صالحة لانتاجه . واذا كانت التجارب التى تمت في الجزيرة الى ان يوم قد اسفرت عن نقص تدريجى في المحصول بسبب الآفات التى تصيبه حتى اصبح الغدان الذى كان ينتج اول زرة حبة قناطر ونصف القنطار من صنف السكلاريدس لا ينتج الا قنطارين وربيع القنطار بعد اربع او خمس سنين من زراعته فان شركة الجزيرة وحكومة السودان تأملان التغلب على هذه الآفات بالوسائل العلمية . ومتى كان ذلك ممكنا فمشكلة اليد العاملة هي المشكلة الكبرى . والتغلب عليها لا يكون الا بزيادة السكان وزيادة نشاطهم ومسألة آفات القطن هي الآن من المسائل التى تستنفد من حكومة السودان عناية كبرى . وقد تخصص للبحث في هذه الآفات وعلاجها اربعة عشر عالما نباتيا من خير علماء الانجليز في هذا الامر يقيمون بالخرطوم كمان في لندرة جمعية علمية نباتية تتضمن وهؤلاء العلماء في عملهم وابحاثهم . فاذا نجح هؤلاء في مقاومة آفة القطن نجاح قلم انصحة في مقاومة الملاريا والزهرى كفلت الحكومة محصولا وافرا من القطن يحقق الى حد كبير ما ترمى السياسة الامبراطورية اليه من رغد السودانيين وفائدة انجلترا فائدة كبرى .

وفي انتظار تحقيق هذه الغايات تعمل الحكومة لاكتشاف الماشية وجعلها من مواد التصدير ذات الابرار كما تعمل لترويج حاصلات السودان ترويجا يتفق ومصلحة انجلترا

ولكى تكون هذه الجهود منتجة يجب ان يكون الامن شاملا البلاد وان تكون في سلم بعضها مع بعض . وهذا هو موضع عناية الحكومة الادارى . وعلى سبيله لاتلاقى من المشتقات مانلاقه حكومة مقيدة بأنظمة خاصة ترمى الى حماية حرية الافراد في صورها المختلفة . فنظام الاحكام العرفية مايزال هو النظام السائد في السودان وكلمة الحاكم العام هى الكلمة العليا النافذة



ويسدو في مصالح حكومة السودان المختلفة نشاط كبير . فاول ما نزلنا الخرطوم في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم السبت دما مدير المخابرات - وهو كمدير الامن العام في مصر - الصحفيين الى اجتماع عنده الساعة السادسة . وذهبت في الموعد بعد ان اجتازت السيارة بى شوارع ترية ، وصعدت فى بناء قليل الارتفاع قليل الواجهة والمهابة على سلم ضيق من حجر الجبل حتى انتهيت الى غرفة المدير . فالتقيت الصحفيين جالسين على مقاعد ادركت لاول ما رايتها انها احضرت خصيصا لهذه الغاية وان المكان ليس به عادة غير مقعد المدير . وكان هناك رئيس مصلحة التلغرافات فلما انتظم عقدنا شرح مدير المخابرات برنامج ايامنا في الخرطوم وبرنامج حفلة افتتاح الخزان . فيوم الاحد للراحة من عناء السفر وليصنع كل به ماشاء . ويوم الاثنين عيد الملك والصحفيون مدعوون فيه لحضور حفلة الشاي . ويوم الثلاثاء لاعمل فيه . اما الاربعاء ففي مسائه يسافر الجميع الى مكوار حيث يحضرون الحفلة ليعودوا الى الخرطوم صباح الجمعة . ويوم الاحد يسافرون قافلين الى حلغا بالقاهرة .

على ان الغرض من الاجتماع عنق مدير المخابرات لم يكن مجرد معرفة البرنامج ، بل كان لتفاهم على طريقة ارسال البرقيات من مكوار ومن بركات ، من غير ان يرتكب الخط بكثرتها ،

ومن غير ان يرتبك الصحفيون اذا اضطروا الى الذهاب لمكاتب التلغراف والى دفع الاجور . وانتهى الحال بالاتفاق على ان تعطى الخطب التى ستلقى فى الاحتفال ظهر الاربعاء على ان لاتذاع الا بعد القائها ظهر الخميس . وكان ذلك يسيرا باعطاء الاشارة الى مصلحة التلغرافات فى القاهرة وفى لندره كى لاتوزع الخطب الا بعد صدور اوامر اخرى . واتفق كذلك على ان يرسل كل مندوب من مندوبى الصحافة عددا معينا من الكلمات لاتتعداه حتى لايزدحم الخط وتتأخر الرسائل ، وعلى ان يدفع كل صحفى تمينا للخرطوم فلا يضطر الى الذهاب بنفسه الى مكتب التلغراف فى مكوار وبركات بل ترسل هذه المكاتب بمندوب من قبلها يتلقى التلغرافات من الصحفيين

وفى صباح اليوم التالى ذهبت اقبال رئيس مصلحة التلغرافات لدفع التأمين ولتتم التفاهم على ما اتفقنا بحضرة مدير المخابرات عليه . وكان معى صحفى ذهب لمثل الغاية التى ذهبت اليها ، فالفينا غرفة هذا الرئيس الانكليزى غاية فى البساطة ولم نجد عنده مانجلس عليه مما اضطره لاستعارة مقاعد من الغرف المجاورة . ولم يطل بيننا الحديث ولم يعد الغاية التى قصدنا اليه لقضائها ، ففى دقائق نادى اليه الموظفين المختصين فجاءوا لنا بالتذاكر الصحفية ، وتسلموا مبلغ التأمين الذى اردنا دفعه وتركنا المكتب بعد دقائق معدودة . وعلى اثر خروجنا اخذ اصحاب المقاعد مقاعدهم .

ونزلنا من عندهم فمررنا برئيس مكتب بريد الخرطوم وهو مصرى من الاقباط نه بالسودان اكثر من عشرين سنة ومع ما قابلنا به من البشر والحفاوة لم نجد عنده هو الاخر مقاعد نجلس اليها . ولما لم يكن لنا عنده عمل خاص استاذننا وظل منصرفا لعمله مكبا عليه . وسألته عن ساعات العمل فاذا متوسطها فى اليوم بين ست وثمان . لكنها مع هذا الانكباب على العمل تكفل انجاز حظ منه عظيم .

وهذا النشاط تشهده في غير هذين من مصالح حكومة السودان . ولعل النظام العرفي الذي تخضع له هذه البلاد والذي يجعل كلمة الحاكم العام العليا في كل شيء له اثره في هذا النشاط الدائم . ولئن صح هذا لكان مصدقا لان المبادئ المطلقة لا وجود لها في الحياة . فليس شيء خيرا مطلقا وليس شيء شرا مطلقا ، بل في كل شيء من الخير والنسر والنفع والضرر نصيب . ومن استطاع ان يغلب جانب الخير في شيء من الاشياء او في نظام من النظم فذلك العاقل الحكيم على ان هذا النشاط الذي رايت لا يتعدى ما نفى به الروابط المادية التي اشار اليها لورد كرومر في كلمته التي صدرنا بها هذا الفصل . فكل ماسوى ادارة شؤون البلاد والعمل لزيادة انتاج اهله لا يظهر له في حكومة السودان بالخرطوم اثر كبير . وقد رايت في العطبرة كيف تقف المدارس النابعة للحكومة عند تخريج صغار الموظفين ومن يقومون ببعض اعمال الدولة الحكومية كالكتابة والتلغراف . وكيف تقف مدرسة الامريكان عند تعليم الابناء بما لا يزيد عن مقابل السنة الثالثة الابتدائية . وعناية الحكومة الرئيسية في الخرطوم بشؤون التعليم لا تتجاوز مثل هذا الذي رايت عند العطبرة كثيرا . ففي الخرطوم حقا كلية غردون . وبها مدرسة للطب انشئت حديثا وبنت على طراز كليات انكلترا لكن التعليم في كلية غردون لا يتعدى التعليم الثانوي على نظامه القديم وبرامجه القديمة في مصر ، اى أنه لا يتعدى ان يكون وسيلة لتخريج موظفين ارقى من الموظفين الذين تخرجهم مدارس العطبرة وغيرها من البلاد الاخرى في السودان . ومدرسة الطب لا تزال مدرسة حديثة وطلبتها قليلون وما يزال نظام تعليمهم غير محدد ، وهو يجب ان يتفق مع السياسة العامة التي ترمى الى اقامة العلائق المادية الحسنة بين الحاكمين والمحكومين ليس غير

وقد يكون لحكومة السودان العذر اذا تشبثت بهذه السياسة في السودان . فالسودان بلاد واسعة مترامية الاطراف وأهلها هائزون على جانب من السداجة عظيم . وميزانيتها لا تتجاوز الى اليوم خمسة ملايين برغم ما بذل من العناية لتنظيمها وزيادة



واذا غضبت الحكومة على أحدهؤلاء الزعماء استردت منه كسوته

ايراداتها . وما تزال طرق المواصلات فيها قليلة برغم سكة الحديد التي انشأها الجيش المصري بين حلفوا والخرطوم وبرغم المنشآت التي تمت بعد ذلك فوصلت ما بين الخرطوم والإبيض وما بين المعطرة وبور سودان وكسلا . وما لم توطد الحكومة مكان الأمن في البلاد وتشعر الحكوميين بأنها تجمع في معاملتهم بين السلطان عليهم والبر بهم فليس يسيرا عليها ان تحقق مصلحة الامبراطورية ومصلحة السودان بالتبعية لها .

فاما شعور الحكوميين بسلطان الحكومة عليهم فمظهره القوة المسلحة التي تقلبت على التماشي وفتحت السودان واخضعت عصاته . ولئن كانت هذه القوة الاولى مصرية فلا تكفي يعتقون ان وجودهم على رئاستها يجعل اهل البلاد يعتقون انهم وحدهم هم اصحاب الكلمة سواء بقيت هذه القوة في البلاد ام اخرجت منها . ولما ير الحكومة فمن مظاهر ما قلنا من عنایتها بالسكان وصحتهم ونشاطهم وتخفيض الضرائب المباشرة عليهم ، كما ان من مظاهر هذه الاقصاب وكسب التشریفة التي وقفت على شيء من امرها يوم عيد الملك وقدروى لى كبير من الموظفين بحكومة السودان ان الحكومة اذا غضبت على احد هؤلاء الزعماء استردت منه كسوته

وليكون الناس اكثر شعورا ببر الحكومة بهم فنظم الحكومة الدعوة في انحاء البلاد للاشادة بهذا البر ولتذكر الناس بما كتقوا خاضعين له من قبل . من الوان الاضطهاد وما كان ينتابهم في الماضي من مظالم ومغارم وعمل ، ولما كانت الصحافة قليلة الجدوى في بلاد قل فيها من يقرأ ويكتب كانت الدعوة الشفوية على لسن موظفى الحكومة والمتصلين بها من الذين يتكلمون لغة البلاد ، سواء منهم من كان من اهلها ومن كان اجنبيا عنها ، هي العمدة في هذه الدعوة التي تساعد الى حد كبير على تاييد النظام والطمأنينة في ربوع السودان . على ان بعض الدعاة يفلون في دعوتهم الى غير حد . واذا صح ما سمعته من ان احدهم ينسب وجود مرض الزهري في السودان الى ايام دخول العرب فيه منذ تقرون ماضية كان ذلك ادل ما يكون على المبالغة والاغراق فيها .

فان هذا المرض الذي يسميه كثير من اهل الريف في مصر « بالفرنجي » اشارة الى دخوله مع الافرنج ايام الحملة الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر - لم يعرف في مصر ولا في السودان قبل ذلك التاريخ . دع جانب افراق الدعاة في تشويه الحكم المصري في السودان فهذا ما سمعته من كثير من كتاب الانكليز وخطبائهم في انكلترا

على ان عدم جدوى الصحافة في بلاد كالسودان لم يمنع حكومة السودان منذ الفتح من ان تشمل بعنايتها جريدة كانت من قبل ذات اتصال بجريدة المقطم في مصر . تلك « حضارة السودان » . وقد ظلت هذه الجريدة متصلة بالمقطم الى ان اتجه نظر الحكومة الانكليزية لنزع السودان من نفوذ مصر . من حينئذ استقلت حضارة السودان وصارت متصلة بحكومة السودان وعهد بتحريرها الى واحد من اهالي السودان الذين تعلموا في الازهر .

وهذه خطوة في تنفيذ السياسة البريطانية التي تقضي بان تكون وظائف حكومة السودان للسودانيين قدر المستطاع وخطوة اخرى مثلها ان حرمت الحكومة على غير السودانيين الالتحاق بكلية غردون بعد ان كان المصريون والسوريون يلحقون بها . والغرض من ذلك ان يرداد عدد المتخرجين من هذه الكلية من اهالي البلاد لتسند اليهم الوظائف الصغيرة في حكومة بلادهم . رغم ما كان من اخراج عدد كبير من الموظفين المصريين فما زال في خدمة حكومة السودان عدد من المصريين اما السوريون فما زالوا في خدمة حكومة السودان كما كانوا من قبل وما زالت الثقة بهم اكيدة مطمئنة . وهم لا ريب اهل لهذه الثقة لانهم يقومون بخدمة الحكومة القائمة خير قيام . . ولم لا وليست لهم ولا لبلادهم في السودان مطالب سياسية تحرك منهم عصبيا او عاطفة يخشى ان يكون لها في السودان اثر

وهؤلاء الموظفون في حكومة السودان من السوريين والمصريين ينفذون السياسة التي يرسمها هؤلاء الرؤساء بذمة ودقة . وهذه السياسة تتلخص في تحسين العلاقات المادية بين الحاكمين والمحكومين . وهي من غير نزاع خير سياسة يمكن اتباعها في بلاد لا تجمع الحاكم والمحكوم فيها رابطة من جنس او لغة او دين

يَوْمَ يَأْمُ دَرْمَانُ

قمت مبكرا فبصرت بأشعة الشمس تطل من خلال النافذة المقفلة طول الليل وكأنها يد أم رؤوم تلمس على ابنها بحنان وعطف كي توقظه من نومه . وسمعت وما أزال ناعما بدفء الغطاء اصوات العصافير في حديقة الفندق وكلها البهجة بمشرق الشمس ويعود النهار والنور . وجاء الخادم بالشاي والبسكوت فطلبت اليه ان يحضر طعام الافطار بالغرفة حتى لا اضيع الوقت وكى أدرك وصديقي ترام الخرطوم الذي يقوم في منتصف الساعة التاسعة قاصدا المقرن لتقلنا الباخرة بعد ذلك عبر النيل الى شواطئ أم درمان

وكنا عند المقرن حوالى الساعة التاسعة . وانتقلنا من الترام الى الباخرة وانتقل معنا كثيرون من السائحين ومع بعضهم حربة اتوا بها . ليطوفوا ام درمان فيها ، كما انتقلت مع جماعة من الاهالى الحمر والدواب . وظل هؤلاء في الطابق الاسفل بينما صعد الذين يدفعون اجر الدرجة الاولى الى الطابق الاعلى . وتحركت الباخرة على هون وفي هدأة وسكون بعد ما انقضى ما كان لصغيرها قبيل تحركها من زفير في الهواء وشهيق

واستدارت الباخرة فاذا أم درمان ما تزال في الحجب واذا اكثر المسافرين يوجهون ابصارهم صوب الخرطوم يطمع كل منهم في ان يشمها جميعا بنظرة واحدة وتبدى الشارع الممتد على شاطئ النيل الازرق قامت عليه الاشجار الضخمة مكلفة الهام بخضرة زاهية ، كما تبدت من ورائه بعض مباني الخرطوم وطرقها كأنها صوامع نساك نثرت في الصحراء على مقربة من واحة ذات خصب

ونماء . وظلب الباخرة تستدير ازاء جزيرة توتى زهاء ساعة حتى اذا قاربنا الشاطئ وجه المسافرين ابصارهم صوب عاصمة الدراويش . . . الا ان للذين يعجبون بالخرطوم لعذرا فهذه المدينة القديمة لا يزين شاطئ نيلها الابيض ما يزين شاطئ نيل الخرطوم الازرق من شجر . بل يقع النظر عند مرسي الباخرة على رمال صحراوية انت مضطر كي تتخطاها الى ان تغوص اقدامك فيها . فاذا جزتها بعد جهد وبلغت تراما هو لترام الخرطوم صنو توام صادفت عينك من المساكن والمباني ما يزور عنه بصرك لحقارته وقذارته . لكنك تشعر كلما سار الترام وتغلغل في المدينة انك في مدينة سودانية حقا ، وترى بعد برهة ان المباني الواقعة عند الموردة عنوان سوء لام درمان ، وان فيها مثل ما في الخرطوم من المنازل والمتاجر والمناظر وان لم يكن فيها ما في مقر حكومة السودان من اضواء الكهرباء ومن مظاهر المدنية التي اقامها الجاكسون في مقر حكمهم للترفيه عن انفسهم ولتيسير لهم الحياة في جو وفي بيئة وفي وسط لم يالفوها .

نزلنا من الترام عند متجر مصري من اهل اسوان عرفناه في الخرطوم . ولست اغلو ان انا قلت ان هذا المتجر وبعض المتاجر الواقعة الى جانبه اجمل وادعى للاحترام من اكثر متاجر الخرطوم . على ان ذلك ليس عجبا وصاحبه يتصل بلانكشير مباشرة وعنده في مصر تجارة كبرى . وقد قابلنا بالترحاب وسألنا ان كنا نشرب « الجبنة » والجبنة قهوة اهل السودان . وانتظرت لارى اى نوع من القهوة يصنع هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون عيش البداوة . واستعرضت اثناء انتظاري صنوف القهوة الساخنة والباردة مما يصنع في مصر وفي اوربا . فنحنس في مصر نطحن البن ونضعه في الماء الى ان يغلى ثم نشربه ، اما في اوربا فيدقون البن حتى يتكسر ثم يصبون الماء الغالى في مصفاة وضع فيها البن كي يمر الماء به وينال خيره وكنت افكر في هذا حين جاءت « الجبنة » . افتردى ما هي ؟ وعاء كروي من الفخار له فوهة ضيقة طويلة يوضع البن

فيه بعد ان يدق حتى يتكسر ويغلى بعد ذلك في الماء ثم تغطى فوهة الجبنة بقطعة من ليف النخل كي تحجب البن المدقوق كما تحجبه مصفاة الفضة او المعدن حين يصفى الماء . وهذه هى قهوة اهل السودان ! ارايب .. هى اذن قهوة الاوربيين سواء بسواء لا فرق بينهما الا في الاناء التى تصنع فيه . واذن فقد تتفق ارقى صور الحضارة مع ابسط صور البداوة ثم لا يكون بينهما فرق الا في الصورة والمظهر . ويكون هذا المظهر وحده هو الذى يخول لاصحابه حق حكم الاخرين والتحدث عليهم .

وقمت وصاحبى ارود عاصمة الدراويش لارى بلدا سودانيا بالفعل . ما اكبر الفرق بينهما وبين الخرطوم ! .. ان بها لازقة ضيقة تنفر الخرموم وشوارعها الواسعة من ضيقها ، وان بها من الصناعات الوطنية البسيطة ما لا يتفق ومظاهر النظام الانكليزى . وكل ما استحدث فيها من اسواق كبيرة ومن بعض شوارع وطرق واسعة لم يغير ساحتها كيدنية سودانية . انظر الى الزقاق الضيق المسقوف بالواح من الخشب والذى يعيد الى ذهنك منظر الخيمة والفحامين بالقاهرة .. هذا هو مقام صناع المراكيب السودانية . وصناع المراكيب السودانية لا يسوردون الجلد مدبوغا ولا يلجأون في دباغته الى أحدث الوسائل العلمية ، بل هم يكتفون اكثر الامر بالقائه في الشمس حتى يجفغه لظاها . ومن الجلد الذى لم يجف بعد ما هو ملقى امام ذكاكين اهل هذه الصناعة . وانظر الى ذلك الشارع الكبير عنوان المدينة . اليس يحى ذكرى شارع النحاسين في اواخر القرن الماضى فهؤلاء العطارون قد برزت دكاكينهم في الشارع وجلس كل واحد منهم في هبة ووقار كأنما هو قاضى الشريعة . وهذا كان جوهرى ما تكاد ترى فيه جوهره واحدة وان رايت بعض آنية دقيقه وصاحبه فيه جالس وكأنه احد يهود الصاغة . ثم قف الان قليلا فتمع ناظريك بصناعة وطنية تجذب السائح من الافرنج وغير الافرنج اليها . هذه صناعة العاج . فهذا سرفيل قدجوف ورسمت فيه فيلة



وكان جواب العجوز الذى اهتز السودان من أعماله .
لم يعودوا يجيئوننى الا بتسعين بلحة !

تصغر واحدا بعد الآخر كلما قربت من ناحية السن الدقيقة .
وهذه زخارف ظريفة من العناجيموهة بالذهب او بالفضة .
لكن هذه الصناعة الوطنية الظريفة الثمينة ما تزال متاخرة
من مثلها في مصر تلخرا كثيرا . وما تزال توضع في دكاكين
لا سبيل لمقارنتها بمثل متاجر الخرطوم . دكك الى جانب هذا
من كثير من مظاهر البؤس والفاقة مما جئنا على وصف بعض منه
هند اسواق الخرطوم وعند مخازن حبوب سكة الحديد . .
مع هذا كله فام درمان مدينة لها حياة المدنية . وفي هذه الازقة
والطرق والشوارع معابد تحدث عن اجيال واجيال . ولهذه المباني
التقديمة القبر المنتظمة تاريخ ، عدم انتظامها اول شاهد عليه .
كلا ! ليست ام درمان عزبة او مزرعة لمالك خططها كما شاء له
هواه ، ولكنها قدس لقبور كدست فوق قبور . وهل في
غير القبور حياة وحضارة لا بل انك لترى نفسك وانت امام
قضاء عظيم فيها لا يفصل بينه وبين الطريق الا حاجز منخفض
من بناء ، قد شعرت بشيء من الجلال يملأ نفسك ومن الهيبة
تفيض بها جوانحك . ذلك حين تقف امام جامع المهدي حيث
يوجد اثر قبره . فهذا الجامع ليس كغيره من المساجد . ليس
كمسجد الخرطوم ومسجد ام درمان وامثالهما مما ترى في بلاد
المسلمين طرا . بل هو قضاء منبسط ما تكاد تحيط العين به في
نظرة لعظيم سعته ، وليس بينه وبين الطريق الا اسوار بلغ من
قلة ارتفاعها انها لا تحجب ارض القضاء الذي تحيط به عن عين
الواقف على مقربة منها . لكنه جامع المهدي . وبحسبك ان
يلكر هذا الاسم حتى يمتلئ هذا القضاء املك بالصور والمعاني
وحتى ترى بعين بصيرتك جيلا كلعا من اهل هذه الاصقاع وقد
حشد في هذا المكان وخر ساعة الصلاة ساجدا مؤمنا بان امامه
ومالكة رسول الله او خليفة رسوله او هو الذي تجسد
لهدي الناس وخلصهم . اجل . . فقي هذا القضاء جمع
المهدي اهل السودان جميعا جيلابل اجيالا . وفي ام درمان كانت
مئات الالوف مما زلذ على الميود وعلى المليونين احيانا ، وكلهم
يؤمن بالمهدي ويرى فيه روح القدس . وما يزال هذا القضاء

فضاء كما كان . ولئن دنسته اقدام لا تؤمن قلوب اربابها
بقداسة المهدي مثل ذلك الايمان القديم فالشمس التي طلعت على
المهدي وعباده ما تزال تطلع فتعت من اشعتها ما يحيى امام
الخيال كل هذا المنظر القوى الحى منظر المؤمنين اشد الايمان
المتعصبين اشد التعصب، يحيطون بمعبودهم يجلونهم
ويقدسونه

على ان رجلا من الذين عمروا هذا الفضاء ايام كان يدوى
باسم المهدي وكان له فيه يومئذ شان يذكر ما يزال حيا يرزق .
ذلك هو عثمان دقنه . فقد كان هذا الرجل قائدا ينشر دعوة
المهدي في شرق السودان بينما كان المهدي ما يزال في الابيض
وما تزال دراويشه بعيدة عن الخرطوم وعن ام درمان . فلما
استتب له الامر بعدما اضطر المصريون بمشورة الانكليز الى
التخلي عن السودان كان عثمان دقنه في طلائع قواته وقواده .
ولما اعيد فتح السودان بقيادة السردار كوشتر بعد ثلاثة عشر
عاما من وفاة المهدي قبض على عثمان دقنه اذ كان امره قد
استفحل وشوكته قد قويت . وظل هذا الرجل في السجن
وكانت حكومة السودان قد اذنت له في اداء فريضة الحج
فسافر مع شاب من اقربائه يريد بيت الله الحرام واجيا ان
يقضى بمكة ما بقى من ايامه . فلما نشبت الحرب بين سلطان
نجد وملك الحجاز عاد ادراجه الى السودان وردته الحكومة
فيه الى معتقله . وهو قد بلغ اليوم من الكبر عتيا . وانك
لتشفق على رجل مثله تحدث به الشيخوخة الى احلام الطفولة
من جديد حين تسمع ما كان من قصته مع السردار ستاك باشا
حين زاره عام ١٩٢٤ ، فلما سألته عن شأنه وما يمكن ان يشكو
منه وما يمكن ان يشتهي كان جواب العجوز المهتم الذي اهتز
السودان من اعماله واعمال رجاله سنين تباعا : لست اشكو الا من
شيء واحد . ذلك انهم كثروا يجيئوننى من بلح التمر كل يوم
باربعين ومائة بلحة . اما الان فلم يعودوا يجيئوننى الا بتسعين .
هذا كان كل همه وتلك كانت شكواه . وفى عد التمر الذى

يؤتى له به كل يوم كان يقضى وقته . وسال السردار في هذا الامر الخطير فعلم انهم كانوا يجيئون له بتمر صغير ثم راوا هذا التمر الكبير خيرا له . قال السردار اعيذوا اليه بلحاته الصغار كما كانت اربعين ومائة ولا تكلفوا عقله واعصابه كل هذا الاجهاد الذى شكا اليوم بسببه .

هذه البقية من عثمان دقته ، هذا الطلل الذى يندب التمرات التسمين بعدما كان صاحبه في الشباب لا يعرف غير البطش والثورة هو الان خافت كذلك الفضاء الصامت اليوم بعد ان كان اسم الله واسم المهدي يدويان فيه كل يوم دوى الرعد وبعد ان كان له ما للرعد من نذر السماء

فاذا انت جاوزت هذا الفضاء الممتلىء بصور الماضي وسرت في طريقك متجها الى وسط ام درمان رايت عن يمينك مسجد ام درمان الذى شيد كما شيد مسجد الخرطوم على طراز حديث ولما يشهد من عبر التاريخ ما يحدث به وهو ابن عصره ومن عمارة اقرانك



وام درمان بلدة سودانية . صحيح انك ترى فيها بعض ما ترى في الخرطوم من متاجر للسويين وللمصريين ولجماعة من الاوروبيين لكن هذه المتاجر ليست قوام حياة ام درمان ، بينما هي قوام حياة الخرطوم . ثم انت ترى ابدا الى جانبها مظاهر نشاط السودانيين انفسهم . بل انت ترى على هذه المتاجر مساحة من معنى السودان لا تراها على متاجر عاصمة السودان . فلما اوغلت قليلا في قلب البلد رايت الحياة السودانية بكل معانيها ، ورايت شيئا عجبا . فالسودانيون في هذه الحياة السودانية ليسوا كما نالهم في جو الخرطوم . فقراء الخرطوم من السودانيين تسدو عليهم وحشة الفاقة والها ويؤسها ما فقراء ام درمان فلا يابون ابتسامة للحياة تسفر عن اسنانهم البيضاء الناصعة . ولعل السر في ذلك ان هؤلاء يلتئمون مع جو بلادهم قليلا

بينهم وبين ما حولهم من الناس والكائنات مثل ما بين اولئك وما ينعم به الحكام من اسباب الرغد والرفاهية . او لعله الشعور بالحرية ان ليس بينهم وبين الحكام من الروابط القريبة ما يجعلهم دائمي الاحساس بمراقبتهم اياهم مراقبة ضيقة . على كل حال فان السودانيين والسودانيات هنا اكثر مرحا واشد بالحياة اغتباطا . مررنا بسودانيات تبيع (الرهط) فوقف صاحبي يساومهن . والرهط لباس الفتيات ياترن به ما دمن ابتكارا . وهو حزام من جلد يبلغ عرضه قيراطين او ثلاثة قراريط ، تتدلى منه خيوط رفيعة من الجلد ايضا وهي كثيرة كثيفة ، فاذا شدت الفتاة حزام الرهط على خصرها سترتها هذه الخيوط حتى ركبتهما وليس يحضرني للرهمط شبه فيما تقع عليه عين اهل الحضارة الالباس بعض الراقصات في الاوبرا وغيرها من المسارح الكبرى . غير ان بينه وبين لباس الراقصة مابين (الجبنة) واثاء القهوة الفرنسية من فرق . فاذا تزوجت البكر السودانية خلعت الرهط واتزرت بالقماش مكانه .

وقف صاحبي يساوم بائعات الرهمط ويسألنهن ما بال هذا الرهمط احمر مصبوغ وذلك الآخر على لونه الطبيعي ؟ فابتسمت الفقيرة السودانية ابتسامة قاتمة وجاهدت لتفهمنا واجتهدنا لتفهم ان هذا المصبوغ احط في صنف جلده من الآخر وهو لذلك اقل منهعنا . ولتزيدنا اقتناعا تناولت من تحت مقعدها جلدتين احدهما لوق من الآخر حالا وهو الذي يصبغ لتوازي الصباغة سوائه ثم امسكت بيمنها فصلا لسكين قديم ولقت بعض الجلد على ايهام قدمها وشدته اليها يسرى يديها وارادت ان ترينا كيف تصنع خيوط الرهمط المتدلية من حزامه . كل ذلك من غير ان تفارق بها ابتسامته الناطقة بالطمأنينة لشظف العيش بل لبؤس الحياة . قال صاحب من السوريين المقيمين في ام درمان كان معنا : ليت الحظ يتيح لكم ان تشهدوا حفل زواج هنا . كنتم فيه ترون صورة ظرفمة من صور الحياه السودانية . وكنتم تدهشون مما فيه من شبه بالحفلات الاوربيه مع اسراف في التقدم والتبريز على

الأوربيين ففي هذا الحفل يجتمع بنات الطبقة التي منها العروس فيرقصن ويغنين . ثم يتقدم الخطيب الى عروسه يراقصها وهي اذ ذاك عارية لا يسترها الا هذا الرهط الذي ترون . فاذا تم دور الرقص امسك بيده سبعاً من خيوط الرهط فجذبها جذبة واحدة . فان اقتلعها فهذا الرجل الذي تفخر به عروسه . اما ان عجز عن اقتلاعها فله ولها الغار والخجل . وكثيراً ما ينرتب على العجز من جانبه فسخ الزواج .

قال صاحبي الذي جاء وياي من الخرطوم :

- وما نزع خيوط الرهط الى جانب تزواج شبان حمر الهنود ؟
فلست اذكر اين قرأت عنهم ان الشبان الذين يريدون ان يزواج يحضرون الى حلقة تقف حولها بنات القبيلة ثم يتقدم كل شاب الى من ينزع ماحول احد ضلوعه من اللحم ونمر حول الضلع حلقة من حديد يشد اليها جبل متين يربط بعد ذلك الى شجرة او نحوها . وبعد ذلك يتراجع العتي للوراء بكل قوته حتى ينكسر ضلعه وتخرج من صدره حلقة الحديد واي الشبان كان اكثر احتمالاً للآلم حتى تمام هذه العملية القاسية فله ان يختار من بنات القبيلة من شاء . اما هنا فما حسب جذب خيوط الرهط السبع وانتزاعها الا ايذاً بان ايام الرهط انتهت وأن للفناة ان يكون امرأة .

ثم تابع السوري المقيم بام درمان حديثه :

- لعلك لم تعد الحق في شيء . فقد سمعت ان الفتيات كثيراً ما يحزنن الخيوط السبع قبل رقص العرس حتى لا تستعصي على الخطيب فلا يكون انتزاعها اياها الا وسيلة اعلان انخراط عرسه في سلك النساء وخروجها من سلك البنات .



وتركنا السوق وصانعات الرهط وبائعاته وعدنا ادراجنا لتناول طعام الغداء عند تاجر سوري ظريف دعانا الى بيته . وبیت هذا التاجر مثل غيره من بيوت السودان صنع من اللبن او من « الجالوس » وجعلت نوافذه على الجهتين البحرية والقبيلة لتغير الهواء الصحي في السودان اذ يكون شمالياً احياناً وجنوبياً احياناً

آه لو سعادت بهمشاهده حلقه عرس سسودانی



أخرى . وبه قضاء غرس صاحبه فيه بعض الأشجار والزهور لتكون
للعين بهجة وحين القيظ ظلا يتقى الإنسان به لافح الهجير . ولكن
الى جانب هذه « الجنيته » الطريقة قضاء آخر متسع خصص لتربية
الديكة الرومية وجدنا به حوالى الخمسين أو الستين منها حين
درنا نرى البيت ومشتلاته .

ويصير هذا التاجر في سعة من النعمة وينهل من صنوف المتاع
المختلفة بما يرفقه عنه الوحدة ويهون عليه العيش في بلاد نائية
يبتغي الثروة كي يعود بها الى اهله ومسقط رأسه فيكون فيه موضع
الأعزاز والإكرام . فعنده « فونوغراف » لطيف جمع له من
مختلف « الاسطوانات » اشكالا والوانا ، وفي ركابه نجار سورى
يقيم بام درمان هو الآخر ويتقن اللعب على الكمنجة اتقاناً حسناً
وكان معنا بين الذين دعوا الى الغداء سورى آخر جميل الصوت
وانتظمت الحلقة وبلغت من بهجة أن نسي الإنسان ابن هو وان خيل
اليه أنا في احدى بلاد سويسرا تمتع من بديع جمال الطبيعة
بخير ما يستمتع به الحس الظمى الى معانى الجمال . فلما بدأت
موليات النهار تولى ذكرنا أناس مدعوون الى طعام العشاء عند
أحد معارفنا بالخرطوم فشكرنا صاحب الدعوة وسرنا حتى محطة
الترام الذى أقلنا الى الباخرة فالى القرن فالى دار صاحبنا

وترك هذا اليوم الذى قضيته بام درمان فى نفسى احسن الاثر .
فقد رأيت مدينة سودانية حقاً . ورأيت حياة سودانية يشعر
أصحابها أنهم فى بلدهم وان الغريب عنهم نازل عندهم وانه فى حمايتهم
وهم ليسوا فى حمايته شأن السودانيين المقيمين بالخرطوم .
وهذا الحياة السودانية فى ام درمان هى التى قضت على ما كان من
محاولات للقضاء عليها كمدينة ولجعل الخرطوم كل شيء . بل
ان من الناس من يعتقد ان الجسر الذى اتى الآن بين الخرطوم و
درمان سيزيد عمارة هذه المدينة وسيعيد اليها كثيراً من سلطانها
ايام كانت عاصمة الدراويش . وما اظن واحداً من السودانيين
الا يقتبط لهذا ويسريه . بل احسب أن الذين شعروا حين
مقامهم فى السودان بقمطاف قلوبهم نحوه يشعرون هذا الشعور
وليحفظون من ام درمان لا من الخرطوم ذكر السودان الصحيح

حفلة افتتاح خزان سنار

الأربعاء ٢٠ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة الثامنة والدقيقة الأربعون مساءً : القيام بالقطار المخصوص من الخرطوم الى مكوار لافتتاح خزان سنار رسمياً

الخميس ٢١ يناير سنة ١٩٢٦ منتصف الساعة التاسعة صباحاً الوصول الى مكوار وإلى خزان سنار

الساعة الحادية عشرة صباحاً حفلة الافتتاح

الساعة الرابعة بعد الظهر . مشاهدة وابورات الخليج ببركات

الجمعة ٢٢ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة السابعة صباحاً :

الوصول إلى الخرطوم عائدين بعد الحفلة

هذه هي مواعيد السفر للحفلة الرسمية التي سافرنا جميعاً من مصر وسافر بعضنا من لندرة الى الخرطوم لحضورها . ولقد وزعت علينا منذ وصولنا الى الخرطوم كراسة فيها هذه المواعيد وغيرها مما تقتضيه تفاصيل الحفلة كما احتوت على سائر مواعيد حركاتنا بالخرطوم

وإذ كنا ضيوف معالي حاكم السودان العام فقد عنيت حكومة السودان أثناء الرحلة كلها براحتنا . لكنها كانت أشد عناية إن شاء السفر من الخرطوم الى سنار والعودة من سنار الى الخرطوم . فأرسلت إلينا في منتصف الساعة الثامنة من مساء الأربعاء ٢٠ يناير عربات كبيرة تنقل أمتعتنا كما أرسلت سيارات في الساعة الثامنة والربع كي نستقلها الى المحطة .»

وما كدنا تصلها في هذه الساعة التي أرخى فيها الليل سدوله على الوجود حتى الفينا جمعاً كبيراً من الرجال والنساء لا يتيسر تمييزه في هذا الوقت . فلما أذن للقطار ان يتحرك في الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين ارتفعت اصوات هذا الجمع الحافل بزغاريد النساء وبشيء يشبه الهتاف من الرجال . واستمرت هذه الزغاريد زمناً طويلاً كان القطار يسير في أثنائها الهويناء مستديراً الى الشرق كي يحاذي النيل الأزرق ويتبع شاطئه حتى يصل الى سنار

هذه الجموع الحافلة وهاتيك النساء المزغردة لا تعرف جمهورتها الكبرى شيئاً من أمر خزان سنار . وربما اعتقد كثيرون ممن عرفوا عنه شيئاً انه شر لهم لانه يحجز الماء فيما وراء ذلك البلد النائي حجزاً يحول دون فيضان النيل الأزرق على حياض اراضيهم كما كان يفيض من قبل فيدع لهم الفرصة التي يزرعون فيها الدرة . لكن هؤلاء الرجال حشدوا لان حكومة السودان ارادت ان يحشدوا وهاتيك النساء زغردن لان حكومة السودان ارادت ان يزغردن . وهم جميعاً واجبة عليهم طاعة اولى الامر . ولهم في اهل مصر أسوة حسنة : يحشدون لغاية ولغير غاية في مواطن كثيرة حسب ماتملى به اهواء الحكام وشهوات السياسة وانطلق القطار يسرى في دجى الليل ويخترق الظلمات وينهب الارض ، وبتنا جماعة الصحفيين في شغل بتلاوة الخطب التي وزعت علينا والتي اعدت ليلقيها الورد جورج مندوب انكلترا السامى وسر جوفرى ارشراكم السودان العام واسماعيل سرى باشا وزير الاشغال بمصر في حفلة الغد . واضطرت انا لنقل خطاب حاكم السودان الى العربية اثناء سفر القطار لانه لم يكن قد ترجم . فلما اتعمته جعل مكاتب التيمس يسألنى راى فيما حوته هذه الخطب وهو معجب بها ولها مجيد .

وقمت الى مرقدى قبيل منتصف الليل فلما ايقظنا الخادم لتناول شاي الصباح كان النور قد انتشر في الارحاء وتبدت

من الجانبين سهول غامرة ظلت تحاذينا حتى وصلنا محطة سنلو
قبل الساعة السابعة . ثم تحرك القطار منها بطيئا الى مكوار على
مقربة من الخزان والى جانب المكان الذى تقام فيه الحفلة
ارسمية .

ماذا ارى ؟ ! ! . . . ما هذه الانوف المؤلفة من خلق الله اهل
السودان ؟ وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تشق
عنان الجو وما هذا العيد الذى لبس فيه اولئك السود الابيض
الجديد ؟ وما هذه الاعلام المصرية وانبريطانية يلعب بها نسيم
الصبح العليل ؟ ما اظن اكبر مدن اية دولة من دول الحفلة
كانت ماثجة بالناس يوم وضعت الحرب الكبرى اوزارها موج هذه
البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزاتها ؟ .. افحق ان اولئك
كلهم جاءوا يباعث من نشوة الجدل والطرب يسعدون برؤية
المد ينزل في ترعة الجزيرة ؟ ام انهم حشروا اليه كما حشر
الزغردات والهاتفون في الخرطوم ؟ وكم يحشر الناس في مصر زمرا
للعباءة كبير او لنحية امير .

قلت لاحد كبار الحكام فى حكومة السودان : انكم لاشد من
حكومة مصر مهارة فى حشد الناس وحشرهم وابرع تمثيلا
لما تريدون ان يكون احساسهم وشعورهم
قال وعلى ثغره ابتسامة جمعت الى التهمك الانتصار : لكننا
لا نحشرهم الا لمناسبة عظيمة كهذه المناسبة . اما فى مصر فما
اكثر ما يحشرون .

وقف القطار اذن عند مكان الحفلة فكان هذا المكان الى
يساره . وكان خزان ترعة الجزيرة امامه ، وقد امتدت
عليه وعلى الخزان كله قضبان السكة الحديد التى ينتظر ان
تمتد بعد ذلك الى كسلا . وكان مقررا ان يقوم القطار بنا فيتخطى
الخزان كله وعرضه ثلاثة كيلومترات . لكنه كان يقوم بمعد
انتهاء الحفلة . لذلك فضلت ان اسير ولو الى منتصف الخزان
واجلا كى احيط بشيء من امره خبرا . واول ما توسطت خزان

ترعة الجزيرة رأيت هذه الجموع التي ترى في الصورة على شاطئ
الترعة الايمن واليسر وقد اعتلى عدد كبير منها تلك الاكمة
الظاهرة . فما كنت ترى الاملابس بيضاء ووجوها سودانية
واقفة تحت الشمس في صمت وسكون كأنما انشقت ارض الاكمة
عنها بعد ان كانت جبلى بها فبعثت خلقا جديدا .

وتخطيت ترعة الجزيرة فوق جسر الخزان وامعنت في سري
على الجسر في امتداده عند الشاطئ الثاني للنيل الازرق .
ويبلغ عرض خزان ترعة الجزيرة مائة متر وثمانية امتار ، يسير
الجسر بعدها فوق ارض صلبة مدى اربعمائة وتسعة وثلاثين
مترا ثم يمتد بعد ذلك فوق خزان احتياطي عرضه مائة
وخمسون مترا ، يجرى بعدها خزان النيل الازرق نفسه
وعرضه ستمائة متر وستة امتار يلتصق به خزان احتياطي ثان
كالخزان الاول في عرضه . ويسير الجسر بعد ذلك فوق
الارض الصلبة مائة وسبعة وثلاثين مترا اخرى . وبذلك
تصبح هذه الابعاد جميعا ثلاثة كيلو مترات وخمسة وعشرين
مترا .

الى ذلك حين تخطيك جسر من فوق ترعة الجزيرة الى اتجاه
شاطئ النيل الازرق ترى خزان سنار حجز الماء فيه
ذلك الجسر الذي تسير عليه فجعل منه بحيرة واسعة ما يكاد
يحيط بكل جوانبها نظر الرائي . وكان الماء يومئذ ازرق زرقة العقيق
وزرقة اسماء وكان الجو صحو صافيا . فلما ابتعدت عن
ضجة الوف من حشروا الى شاطئ الترعة وبلغت من الحسر
فوق مجرى النيل الازرق وهبت على نسائم الصباح الرقيق
ارسلت بناظري استطلع شيئا من خبر هذه البحيرة المتسعة
الى يميني . فلما عجزت عن الاستطلاع زددت الطرف يسرة
فاذا ترعة الجزيرة تنتظر افتتاح الخزان ليرفع الماء فيها ، واذا
النيل الازرق فيما وراء الخزان محصور في ستمائة متر بينما
تهادى مياه الخزان في ثلاثة آلاف وخمسة وعشرين مترا واذا
الفرق بين ارتفاع مياه الخزان وانخفاض مياه النيل الازرق

ياخذ بالنظر فعلا ويدعو الى شئ غير قليل من التفكير في هذا العمل الهندسى العظيم وآثاره في السودان وما قد يكون له من رد فعل على المياه اللازمة لمصر

في منتصف الخزان غرفة عليها لوحتان من نحاس نقش على واحدتهما تاريخ بناء الخزان وعلى الاخرى اسماء حكام السودان اثناء بنائه والمهندسين الذين تعاقبوا هذا البناء . وفوق هذه الغرفة رفع العلم المصرى

مقابل الغرفة صفت مقاعد كثيرة يستريح عندها المندوب السامى الذى جاء مع صاحب له يشهد الخزان ويسأل « المهندس المقيم » عما يريد ان يسأل عنه من المعلومات الخاصة بهذا البناء الفخيم . وقد لقينى المندوب والحاكم العام واصحابهما حين عودتى راجعا الى مكان الاحنة . . وكان حتما ان اسرع بالعودة وانا راجل وهم مستغلون السيارات . وعدت فقابلت كثيرين من المصورين والصحفيين مسرعين بالعودة كذلك . فلما بلغت الى حيث كان القطار واقفا انحدرت يمنة حيث اقيمت مظلة للمدعوين ترفرف من حوزة الاعلام المصرية ، وفي ظلها قامت صفوف مدرجة من المناضلة الخشبية الطويلة ليجلس المدعون عليها .

امام هذه المظلة وضعت منصة للخطابة ووضع فوق المنضدة بوق لتضخيم الصوت حتى تسمعه هذه الالوف المؤلفة جميعا . كما قامت فوق المنضدة يد في شكل « امنمحت » متصلة كهربائيا بفتحات الخزان حتى اذا ادارها المندوب السامى انفرج باب الخزان وجرى الماء منه في ترعة الجزيرة .

وفي الساعة العاشرة عاد المندوب السامى والحاكم العام وقرينتهما وجلسوا الى المنصة وجلس معهم معالى اسماعيل سرى باشا وزير الاشغال بالوزارة المصرية في ذلك الحين . وجلس من ورائهم الشيخ محمد الطيب هاشم قاضى النيل الازرق الذى كلف بالقاء ترجمة الخطب من الانكليزية الى العربية

العودة إلى الخرطوم عند محالج قطن السودان في بركات

انتهت حفلة افتتاح خزان سنار التي دعينا لشهوها وان لنا ان نعود بالقطار نتناول فيه طعام الغداء وننزل منه عند بركات نشهد احد وابورات الخليج بها ونستمع الى الخطاب الثاني الذي يلقيه فخامة لورد لويد مندوب انكلترا السامي

واذ كانت هذه الحفلات كغيرها من الحفلات الرسمية اقرب الى ان تكون مظاهرات منها الى اى شيء آخر وكان خطاب لورد لويد يجب ان يتناول الحديث عن زراعة اراضي الجزيرة والقطن النامي بها والنتائج منها ولم يكن لورد لويد قد حضر الى السودان من قبل ابدًا ، فقد وجب ان يستقل فخامته وقرينته سيارات يصحبهم فيها رجال حكومة السودان ويطوفون واياهم بعض مزارع القطن لكي يكون حديث المنصب السامي عن علم او عما يشبه العلم في نظر المستمعين . لذلك استقل هو ومن كان في صحبته سياراتهم على ان يمروا بالمزارع واستقلنا نحن القطار .
والى الالتقى ببركات

ها نحن الان تشهد اميننا ضيوف الحاكم العام بحفلة افتتاح الخزان مجتمعين في عربات القطار . لقد جاءوا من مصر وانكلترا زمرا ولم ير بعضهم بعضا في اجتماع واحد . ولقد دعى كثير من اميان السودان لشهود الحفلة ممن رأينا في يوم عيد الملك ومن لم نر في ذلك اليوم . وقد قمنا من الخرطوم في المساء بعد ما تناولنا طعام العشاء بغنادقها ، وشغلنا عند سمر القطار بالهاتفين والمزفردات وذهب اكثرنا بعد ذلك الى

مخدعه ، ثم تناول الاكثرون طعام الافطار في مخادعهم كذلك . لهذا لم يتسن لاحد ان يرى جميع زملائه في الضيافة الا حين حفلة مكوار . لكن الذين اجتمعوا لشهود الحفلة من موظفين وغير موظفين جعل التفرفة بين الضيوف وغيرهم عسيرا . فلما تحرك القطار وباعد بيننا وبين الالوف التي حشدت لتهتف للمحتفلين لم يبق الا نحن الضيوف وشعر كل واحد منا بما بينه وبين صاحبه من صلة الضيافة ، فكنت ترى كثيرا من الابتسامات تتبادل ومن التحيات تنهادى

ثم كانت فرصة اخرى لزيادة التعارف تلك فرصة تناول طعام الغداء في عربة الاكل . فقد هرع الناس الى هناك بعد سير القطار بدقائق ، واستبقوا يتخير كل منهم مكانا صالحا . ولم تعن حكومة السودان بتحديد الامكنة في تلك العربة كما عنيت بتحديد مخادع النوم . فكان السابق صاحب الاختيار . وكان جماعة الاوربيين انكليز او غير انكليز اسبق منا نحن الشرقيين الذين يرون في الاسراع الى الطعام شيئا من التنافي مع الكرامة لما قد يكون فيه من دلالة على الشرف . لذلك الفينا نصف العربة الاول املا وبقي نصفها الثاني خاليا او يكاد . فنخيرنا في هذا القسم الثاني اما كنا وجعلنا ننتظر من يجلس وايانا فيه بينا كان الخدم يقدمون الطعام لاهل القسم الاول . اين جيراننا وزملاؤنا في الطعام ؟ اولئك اعيان السودان . وهم اشد تباطؤا الى الطعام وتظاهروا بعدم الاكتراث به لنفس السبب الذي جعلنا نتأخر عن زملائنا الاوربيين . لكن .. هاهم بدأوا يفدون واحدا بعد واحد . وهذا جانب الغرفة يكاد يمتلىء ... لكن ... أين السير السيد على الميرغنى باشا ! ابعثوا في طلبه .. احفظوا له مكانه ... وذهب كبير من موظفي حكومة السودان يبحث عنه ثم جاء واياه على مهل فاجلسه على المائدة المقابلة لمائتنا

واشار جليسى الى احد اعيان السودان وسألنى ان كنت اعرفه ، ثم اخبرنى انه انعم عليه بلقب «سير» يوم عيد الملك . وهو رجل طويل

القامة نحيف الجسم تبدو عليه مظاهر القوة والشدة . قال جليسى :

- « قد يدهشك ان تنعم حكومة صاحب الجلالة البريطانية على مثل هذا الرجل باللقب العظيم الذى اتعمت عليه به والذى لم تنعم به فى مصر الا على رؤساء الوزارات . لكنك تزول دهشتك اذا علمت ان فى امرة هذا الرجل الفى رجل يتحركون باشارته ويدينون لطاعته . والانعام عليه يفيند ولاءه للحكومة وللتاج البريطانى ويقيده بهذا الولاء فعلا . واذن فهذا اللقب الذى لا يكلف حكومة الامبراطورية شيئا قد كفل لها ولاء الفى رجل كلهم عتاة شدادلا يعصون هذا الرجل ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون

وكانما شعر جماعة من اعيان السودان الذين جلسوا الى جانبنا انا نتحدث عنهم فظفروا الى ناحيتنا نظرات حذر وتاهب . ثم خاطبنا احدهم بلهجة عسر على ان افهمها . فرد عليه جليسى بعبارة لطيفة . وآليت ان لاتحدث عن هؤلاء الناس اثناء الطعام بشئ حتى لا اثير مايدفعهم الى التاهب من جديد . بل لقد حاولت ان لا انظر اليهم كيف يتناولون الطعام مخافة ان يحسبوا انها نظرة نقد .

برغم هذا الحذر والتاهب الذى دفعت به الى نفوس اعيان السودان احداث السياسة كنت تلمسح فى وجوههم من علائم الشهامة والكرم والمروءة مايدكرنا باجدادنا المصريين الذين لم يكونوا قد تأثروا بعد بالمدنية الغربية ولم تكن النظم الحاضرة قد دفعت الى نفوسهم ما ترى اليوم عند كثيرين من حرص على المسادة وانغماس فى اسباب تحصيلها . بل كنت ترى اكثر من هذا . كنت تحس هؤلاء الاعيان يشعرون بشئ من الضيق لهذه التكاليف الرسمية . هم يفتبطون بما تنطق به من صلة بينهم وبين الحاكم . لكنها فى نفس الوقت لا تتفق وطباعهم الصريحة التى لا تعرف القيود ، ولعل الكثيرين منهم فى ذلك مثلهم مثل شيخ عرب من اكادم المصريين توفى منذ زمن طويل كان يذهب الى التشريفه لمقابلة الخديو مع سائر الاعيان فى كل عيد من الاعياد .

وكان يتضايق غاية الضيق من الجبة والقفطان . فكان يذهب في ملابسه العادية والتي تنم عن بساطته وكرمه وحبه الانسانية والتي تتكون من زعبوط وحرام الى حانوت على مقربة من عابدين حيث يخلعها ويرتدى الملابس الرسمية مدى الساعة التي يدخل فيها قصر عابدين ويمثل فيها في حضرة الامير . فاذا تمت هذه المهمة التي كان يغتبط بها اسرع الى حانوته فالتقى بملابسه الرسمية ولبس زعبوطه وحرامه وعاد كما كان شيخ العرب الكريم السخى اليد الذي يريد ان لا يشعر فقير الى جانبه بالفقر ما دام يرى هذا المحسن اليه في لباس بسيط كلباسه .

وانطلق القطار الى بركات فبلغها حوالي الرابعة بعد الظهر . ثم سار بعد ذلك على مهل الى وأبور الخليج . ماهذه الجموع الحاشدة التي تزيد على جموع مكوار !! احسب ان حكومة السودان قد جندت من في السودان جميعا لهذا اليوم . فهو لاء لا شك يزيدون على خمسة عشر الف رجل . وهؤلاء لبسوا البياض . فلعله لهم او لعل الحكومة تتركه منحة منها ان كانت هي التي خلعتهم عليهم

نزلنا من القطار في ساحة فسيحة يتسع جانبها البعيد عنا لهذه الالوف الحاشدة وفصل بيننا وبينها فضاء متسع وضعت في ركن من اركانه اكياس القطن التي اتى بها للملحج ، وقام وأبور الخليج وبه ثمانون دولابا في وسط الساحة ، وهذا الوابور واحد من أربعة يشغل في كل منها مائتان وخمسون عاملا . وسرنا تغمرنا شمس يناير الدافئة البديعة المنعشة حتى دخلنا بناء الوابور المقام من الصاج . اليس عجبا ان تمتد يد الحضارة لتقيم في هذه النواحي البادية هذه الآلات الضخمة العظيمة اتى بها من انكلترا على متون البحار قطعاً وهذه هي تدور الان مكينات فخمة قوية تحلج مئات القناطير وتقدم لمئات السودانيين عملاً كانوا في غنى عنه بقناعتهم بعيش البداوة الهني . لكن انكلترا يجب ان تغدو بالقطن لينال عمالها واشرافها اكبر حظ يريدون نواله من المتاع بالحياة فيجب لذلك ان يخرج اهل السودان وغير اهل السودان على ما ألفوا منذ مئات السنين وإن

ينتجوا القطن وغير القطن - كارهين لهذا المجهود اول قيامهم به .
 فاذا الفوه ، والفوا ما يدره عليهم من ربح وما يوفره لهم في الحياة
 من نعيم استزادوا منه بما اطاقوا الاستزادة . ثم تراهم بعد ذلك
 ولهم في الحياة مثل ما لعمال الانكليز واطرافهم من مطامع .
 يومئذ لا يكون مقر من احتكاك دفتقاهم . وذلك شأن النظام
 الفردى في الاقتصاد، ذلك النظام البديع القئم على ان تعنى كل
 ذاية ، سواء كانت فردا او هيئة او امة ، بمصلحتها . وان تنافس
 غيرها في السعى لتحصيل هذه المصلحة في خير ظروف ممكنة .
 فهو ينهى دائما الى السير بالاسانية في سبيل التقدم .
 وهو من غير شك الحركة الدافعة التي تصل ، عن غير شعور من
 القائمين بها الى هذه الغاية الانسانية السامية غاية تفاهم
 الجميع لخير الجميع ولخير كل فرد او هيئة او امة يتكون منها
 هذا الجميع

دونا في ارجاء وابور الخليج ثم خرجنا من باب غير الذى
 دخلنا منه فاذا امام هذا الباب الثانى مصطبة كبيرة اقيمت عليها
 مظلة تحتها مائدة عليها معظم للصوت ومن حولها مقاعد اعدت
 ليجلس عليها المندوب السامى البريطانى وصحبه ، وليقوم بالقاء
 خطابه ، ينوه فيه بأعمال الحضارة التي قامت به بريطانيا في السودان
 على هذه الالوف من السودانيين الذين حشدوا له ، والذين لا يعرف
 احدهم من الانكليزية حرفا ولا واحد في كل مائتين منهم ان يدرك
 - ان هو استطاع ان يسمع - ما في ترجمة هذا الخطاب الى العربية
 واعدت للصحافة مناضد وضعت عليها اقلام الرصاص
 و (بلو كنوت) من ورق صقيل كما مهدت للصحفيين من قبل كل
 وسائل العمل للاسراع . في ارسال رسائلهم البرقية الى أنحاء العالم
 المختلفة يذيعون فيها أخبار هذا الاجتفال البريطانى في مناطق خط
 الاستواء ، بعمل من أعمال الحضارة العظيمة قامت به بريطانيا خدمة
 للحضارة في العالم ، وان كانت خدمة تفيد اهل البلاد وتفيد
 بريطانيا نفسها .
 وبعد الساعة الرابعة يقليل أقبل لورد لويد ومن معه عائدتين



ولم يكن ذلك الامريكى يشعر بما يشعر به اهل العالم من
قواعد السلوك في حركاتهم وملابسهم

من زيارة مزارع القطن بالجزيرة فحاطوا بالمنضدة تحت المظلة ،
والقى لورد لويد خطابا هذه ترجمته :

كان لي هذا الصباح كما تعلمون عظيم الاغتراب بافتتاح خزان
سنار وتسجيل خطوة جديدة خطيرة لترقى السودان الاقتصادي
ومنذ الاحتفال مررنا بقسم من الاراضي التي اخصبها الخزان
ولاحظناها . ومن دواعي سروري ان تتاح لي الان فرصة مقابلة من
تقع عليهم التبعة الخطيرة ، تبعة استغلال ما أنشئ الخزان له .

لايسع الزائر الذي يرى ماتم اليوم الا أن يقدر ما أنفق في هذا
المشروع من جهد وروية واقدام . فمنذ سنة ١٨٩٩ عرف السير
وليم جارستين الذي عمل كثيرا اهاالي مصر والسودان مكنونات
سهل الجزيرة . ومن ذلك الحين ظلت المسألة موضع البحث
الدقيق . واستطيع شخصا أن أقدر هذا العمل قدره بعد ما كان
من حظي في أثناء عملي في الهند أن أفتتح واشهد أكثر من واحد
من مشروعات الري الكبرى التي قصد بها هناك كما قصد بها
هنا الى تحسين حظ المزارعين وزيادة ثروة البلاد .

تعرفون تاريخ المشروع ووقوفه في أثناء الحرب والصعوبات
الهنسية العظيمة التي وجب التغلب عليها قبل اتمامه كما نراه
اليوم . والمسألة الان هي كيفية الاستفادة الصحيحة من الموارد
التي أسبغها على اهاالي السودان عظيم ما أنفق من جهد ومال .
والجواب لا ريب عندي أن النجاح بهن يستمرارونمو التعاون الذي
قام المشروع على أساسه . فقد كتبت للجنهور البريطانى بما لا يقل
من أحد عشر مليوناً وربع مليون من الجنيهات ، وبررت الشركة
من جانبها هذه الثقة بها بمباشرة الأعمال الزراعية وحفر الترغ
الصغرى بعمد نظر ومقنونة يقصدونهما كل ثناء ، وألقت درسا
مدهشا بتدريب عدد عظيم من المزارع عند الطلبات . وأهم
الاشياء ان علاقاتها بالمزارع عموما كانت علاقات عطف ومنودة ولا
سبيل للنجاح الصحيح ما لم يتم على قاعدة هذا العطف
وبعد أن أثنى على المستراكتين قال :

لقد تغيرت حالة السودان كلها في السبع والعشرين سنة

الآخرة . فكانت البلاد قبل إعادة فتحها تزداد كل سنة انحطاطا بدلا من أن تتقدم ، وكانت حروب القبائل وما تجر من الوباء والقحط وسائر الشرور التي تلازم عدم العثمانية على النفس والمال تهلك انحرث والنسل ، لذلك انقلبت مساحات واسعة كانت قبل عامرة الى اراض غامرة واشتد الظلم والقسوة . ومن بينكم لا ريب من يذكر تلك الايام ومن عاش ليرى الشوك والسعدان ينقلبان مروجاً خصبة ، والضغط والقسوة يحل محلهما العدل والسلام . وتشهد الاحصاءات الرسمية بزيادة عدد السكان منذ ذلك الى ثلاثة اضعافه ، واصبحت الثروة لاتقضى مضجع صاحبها مخافة أن ينتزعها منه مستبد . والغنى والفقر يستطيعان السير آمنين حيث يشاءان ، وللقانون والنظام الحكم في كل مكان . وفي السنة الاولى لاتمام الخزان زرع ثمانون الف فدان قطنا ، ومساحة عظيمة ذرة ينتظر ان تغل ثمانين الف اردب هذا انعام ، وذلك كفيل بعدم جنابة غرض مشروع الجزيرة الاول ، بزرع القطن لبيعه ، على حاجات الشعب لمؤونته كغالة تطمئن من يذكر قحط البلاد سنة ١٨٨٨ وما آحاق بها من متاعب خطيرة سنة ١٩١٣ . ونقطة هامة تستحق التنويه هي كغالة حقوق الاهالى بقانون سنة ١٩٢١ . فهناك شركة بين الزراعة والحكومة والشركة اشترك وثيق في المصالح يجعل كل طرف يسعى لانتاج احسن محصول واصحه وختم جنبه الخطاب بتهنئة موظفي المديرية وشكر الحاكم العام والتنويه بفائدة المشروع لاهالى السودان وتجارة جميع الامم .

وكان يلوح على لورد لوبد أثناء القائه هذا الخطاب انه متعب مجدود . فلم يكن في مثل ما كان ساعة القاء خطاب الصباح من نشاط وهمة . وله العذر بعد هذا المجهود المضني الذي قام به هو وقرينته والذي لا يعتبر شيئا الى جانبه ما قاما به من مصافحة اكثر من ثمانمائة مدعوى حفلة « يوم الملك » عملا لصلحة الامبراطورية العظيمة

وانصرفنا عائدين الى القطار، وخفف عن هذه الالوف التي

حشدت نطاق النظام الحديدى الذى اوقفها فى اماكنها صفوفا
كما توقف الجند . فاستفاد من ذلك بعض افرادها . كانوا
يحدثونا ايام الطفولة ان سليمان عليه السلام حبس الجن والزعم
بناء تدمر بالصفاح والعمد ، وانه ظل يرقبهم بنفسه فكان مجرد
جلوسه عندهم كافيا لدابهم على العمل والجد فيه . ومات سليمان
فى جلسته واسبل الموت عينيه ومع ذلك ظل الجن فى دابهم خيفة
ان يكون اطباق النبى اجفانه لسنة اخذته فاذا شذوا عن امره
انزل بهم الام العقاب . فلما مال جثمان سليمان وهوى الى
الارض وايقن الجن موته انطلقوا فرحين اشد فرح بعود الحرية
اليهم وجعلوا يعيئون حيث شاؤوا وبما شاؤوا . كان ذلك شأن
هؤلاء الذين خفف نطاق النظام عنهم . انطلقوا يعدون ملء
سيقانهم ليملاوا هذا الفضاء الذى كان يفصل بيننا وبينهم
حتى صاروا عتبة فى سبيل وصولنا الى القطار . فلما وصلنا
اليه بعد جهد الفينا هم احاطوا به من كل جانب حتى تعذر
الصعود اليه ، واضطرونا للالتجاء الى القائمين بأمر النظام فى هذا
المكان الذى تولاه هرج اى هرج . وعجز حماة النظام عن معاونتنا
فشققنا لانفسنا الطريق بين هذه الجموع المائجة التى ظل لديها
من الاحترام لنا ما توجه عليها الشرقية المتسامحة من اكرام
الضيف وحماية الغرب

فيم هذا الهرج والمرج ؟! ما هذا العجيج الذى تثيره هذه
الخلائق المندفعة صوب القطار فى حماسة وجيشان ؟! .. صه ! ان
لها من وراء اندفاعها لغرض اساسيا عظيما . انها تلتمس بركات
صاحب البركات السيد على الميرغنى .

نعم ! فقد اقبل السيد الى عربته بالقطار فطار فى اثره مئات
من السودانيين لا يقترب اليه منهم احد ولكنهم يتبركون بمواطىء
قدمه ويطلبون اليه فى خشوع وابتهاال كلمة الرضى والغفران .
فلما سعدنا العربية رايتهم احاطوا بها وجعلوا يملسون بايديهم عليها
يشملون من بركاتها ما يتطلى به اولئك الذين يزورون الاولياء
الصالحين فى مقابرهم . ولعلك ان تحدثت الى

احدهم فيما يفعل قال لك ان عربة القطار التى يحلها ولى صالح كالسيد المرنى اكثر حياة وبركة من ضريح به رفات ولى كان من الصالحين . ولعله يقول لك ذلك فى ايمان ناسيا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، وانهم بعد موتهم احياء عند ربهم يرزقون .

اشرت فى فصل « عيد الملك » الى ايمان اعيان السودان بالسيد على . هذا الايمان المرتسم على وجوههم البادى فى نظراتهم المتجلى فى كل حركاتهم حين اقبالهم مسرعين فى خشوع واجلال يقبلون يده وينظرون من طرف كسير نظرة كلها الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . فاما ايمان عامة اهل السودان بالسيد فيفوق ذلك اضعافا مضاعفة ويتجلى فى صورة من التعبد لا تبعد كثيرا عن العبادة . رايت بعينى جماعة منهم تقبل سلم عربة السكة الحديد لان قدم السيد وطئتها . وكنت تسمع هذا الجمع الحاشد حول العربة مبتهلا اليه ان يكون واسطة له عند الله فى المغفرة . ولو ان السيد امرهم فى سبيل ذلك بما امرهم لما عصوا له امر ولا خالفوا له كلمة . ولو انهم ظفروا من فضل رداء السيد بخيط واحد لاقتتلوا عليه يريد كل ان يكون له او ان يلمسه ان لم يستطع امتلاكه .

انظر ! هذا جن سليمان فك عقله . فهذه الالوف الحاشدة تزحف نحو القطار زحفا . وهذه كلها تصطف على مقربة منه صفا صفا . وهؤلاء افراد اشد من غيرهم حماسة فى ايمانهم يجاهدون ليشقوا لانفسهم الى عربة السيد طريقا . ولا منقذ لنا من هجومهم علينا الا ايمانهم بالسيد وفرط حرصهم على رضائه . ولا مفر لاذنانا من سماع عجيح دعواتهم الى ان ينطلق القطار فيخلفهم وراءه .

انطلق القطار ، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير . افحسيت انهم جميعا وقفوا عند نهيلهم وتكبيرهم . كلا بل انطلق جماعة منهم يسبقون القطار محاذين عربة السيد وسيقاتهم

الدقيقة واعصابهم المتينة تجعل منهم من هو اعدى من السليك
انقطعت الضجة واخذ بالعادين الجهد وابديت الى صاحبى الموظف
الكبير بحكومة السودان عجبي لهذا الايمان . قال لا تعجب .
فقد ذهبنا من نحو خمس عشرة سنة لافتتاح خط كسلا ومعنا
السيد . وعلم اهل ذلك الاقليم بالامر فاحاطوا بالقطار اول
دخوله اقليمهم لا يخشون ان توردهم عرباته الحتف اثناء
سيره ، بل تعلقوا به مناجين مهللين يلتمسون من السيد
دعائه وبركاته مما اضطر سائق القطار للسير الهوينى مخافة ان
يذهب بهذه الارواح الصارخة ، ودخلنا لذلك متأخرين عدة
ساعات عن الموعد المضروب لدخول القطار واقامة الاحتفال

وقال آخر : ولعلمت ياسيدى انهم ما يزالون اذا دخلوا الى داره
بالخرطوم دخلوا الى البهو الذى هو فيه زحفا على
أيديهم وسيقاتهم وعيونهم ثابتة فى الارض لا ترتفع له منهم نظرة
لقدرت مكانة السيد العظيم وسلطانه الدينى . ثم لو علمت
مع ذلك انه لا يسخر هذا السلطان الدينى لدعوة سياسيه ولا يطمع
فى شئ . الا ان يسود السلام بلاده لا كبرت من قدره فوق ما كبرت
ولعلمت انه اوتى من الله حكمه وفضلا عظيما

وامعن القطار فى انطلاقه وعدنا بعد تناول طعام العشاء الى
مخادعنا . وانا لنمعدتنا للنوم اذ بلغنا واد مدنى . فصعد الى
القطار جماعه من الشبان المصريين الذين ما يزالون مقيمين بالسودان
وقصدوا الى مخدعى ، وبعد تبادل التحية سألونى ان انزل معهم الى
رصيف المحطة لتكون بعيدين عن الانظار والاسماع . وهذا
بعض مظاهر الحذر الذى اشرت اليه من قبل . فعند قتل السيرلى
ستاك فى القاهرة ورتبت انكلترا على قتله اخراج الجيش المصرى
من السودان قامت حكومة السودان باحاطة المصريين المقيمين
فى ربوعه برقابة شديدة مخافة ان يشيروا فى السودان روح التمرد
والعصيان . على ان هؤلاء الشبان الذين احاطو بى فى واد مدنى
كغيرهم من المصريين الكثيرين الذين قابلتهم كانوا اشد ميلا
لاعتبار حركة سنة ١٩٢٤ حركة طائشة لاسباب عدة . ولعل اهم

هذه الاسباب فى نظرم ما اتاه كثيرون من الضباط المصريين من تصرفات ادت الى عدم رضى السودانين ويسرت نشر الدعوة ضد الحكم المصرى فى السودان ولست ادرى مبلغ مارووا من الصحة . الا انهم كانوا يتهمون هؤلاء الضباط بانهم لم يكونوا يعرفون الا شهواتهم وانهم كانوا يقضون النهار وطرفا من الليل فى استيفائها، سواء منها الطبيعى والشاذ وسواء منها الملعوم والمشروب . وقد يكون لبعض هذه التهم قوام والحكومة المصريه لم تكن بان يكون نائبها عنها فى السودان رجل له مقام الوزير وسلطانه على المصريين الذين فى السودان على الاقل كذلك كان من شكوى هؤلاء الشبان المصريين الذين تحدثوا الى فى واد مدنى ان بعض السودانين الموجودين بمصر لا يلقون من عطف المصريين عليهم ما يلهم السننهم ببناء يتردد فى مختلف جوانب السودان ويدل دلالة حقيقية على عواطف الاخوة الصادقة بين اجزاء هذا الشعب المتصل بأوثق الروابط وامتنها والمقيم على ضفاف النيل الذى يسفغ عليه الحياة ونعمتها وتركت هؤلاء الشبان الذين ودعوني بحفاوة سكرتهم واشكرهم اليوم عليها وعدت الى مخدعى فى القطار . ثم عاد القطار الى انطلاقه فاوينا الى مضاجعنا وبقينا فيها نياما حتى استيقظنا فى الصباح على مقربه من الخرطوم . فآخذنا افطارنا وتهيأنا للعودة الى فنادقنا ناوى الليلتين الباقيتين على مغادرتنا ربوع السودان

خزان سنار ومشروع رى الجزيرة

«خزان سناره» أصبح الآن الاسم الرسمي لهذا الخزان القائم على النيل الأزرق تحجز مياهه لرى أراضى الجزيرة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق ، ولكن هذا الاسم لم يخلع عليه بصفة رسمية حاسمة الا فى حفلة افتتاحه . أما الى يومئذ فكان كثيرون يسمونه خزان مكوار باسم البلد الذى بنى عنده كما سمي خزان اصوان باسم اصوان . ويحكى عن تغيير الاسم من مكوار الى سنار حكاية طريفة أقصاها هنا من غير أن أكفل صحتها . ذلك أن مكوار عائلة كبيرة فى هذه المنطقة من مناطق السودان استوطنت الجهة وأطلقت اسمها على البلد الذى استقرت به . ثم كان ان عدا الدهر على العائلة فتدهور حالها وذهب أحد أبنائها يلتمس معونة الحكومة على غدر القدر ، ولما سئل عما قدم هو وأهله للحكومة من خدمة تبرر هذه المعونة قال : « يكفى اطلاق اسم عائلتنا على هذا العمل الهئسى العظيم الذى يخلد ذكر هذه الحكومة وذكر بريطانيا» فكان الجواب رفض المعونة وتغيير نسبة الخزان من القرية الواقع عندها الى مديرية سنار القائم خلالها

وخزان سنار واحد من أعمال الرى الكبرى التى يراد باقامتها ضبط مياه النيل . فما يزال القسم الأكبر منها يضيع فى البحر الأبيض المتوسط مع امكان الانتفاع به لرى ملايين الأفدنة القرية من النيل والصالحة للزراعة لولا عدم وصول المياه لها ولم يشبه خزان سنار الا بعد أن قام الكومندان المصرى والسودانية

بعمل مباحث مستفيضة عنه وعن سائر مشروعات الرى الاخرى وبعد ما اجريت تجارب كثيرة لمعرفة مبلغ صلاح ارض الجزيرة لزراعة القطن ذى التيلة الطويلة من نوع قطن السككلايدس المصرى . فلما نجحت هذه التجارب اقدمت حكومة السودان على انشاء الخزان الذى حضرنا حفلة افتتاحه

وكان السر وليسم جارستن مستشار وزارة الاشغال المصرية اول من لفت النظر لامكان رى سهل الجزيرة صناعيا فى سنة ١٨٩٩ ، وايده فى تقرير قدمه سنة ١٩٠٤ للورد كرومر قنصل بريطانيا الجنرال فى مصر . والى ذلك الوقت كانت فكرة زراعة القطن فى مساحات واسعة بأراضى الجزيرة لا تزيد على خيال لذيد ينظر اليه الانكليز بعين الرجاء . ذلك أن زراعة القطن لم تكن غريبة عن تاريخ السودان . فقد روى المسيو بونسيه الذى زار سنار مع المبشر زافريوس دى برفان سنة ١٦٩٩ أنه وجد بها مائة ألف من السكان رائجة تجارتهم فى تصدير القطن الى حد ان اتفق السلطان الازرق - وذلك هو اللقب الذى كان يطلق على امير هذه المنطقة الواقعة على النيل الازرق - مع ملك الحبشة على ابقاء ضابط بالنيابة عنه فى شلجا عند حدود الحبشة لتحصيل العوائد على القطن الصادر واقتسامها شطرين يأخذ كل امير منهما شطرا . كذلك روى بركار الذى زار شندى فى سنة ١٨١٤ ان أهم صادرات سنار كان الدمور مصنوع من القطن ، كما روى ان مصانع القطن فى سنار وبجرمى هى التى كانت تمون القسم الاكبر من افريقيا الشمالية باللباس . على ان هذه الصناعة انحطت فى السودان وتدهورت لقيام الصناعة الكبرى فى أوروبا ومزاحمتها الصناعة اليدوية فى الاسواق مزاحمة لم تقو هذه الصناعة اليدوية على البقاء امامها طويلا . لذلك انقلب السودان الى زراعة الحبوب واطلق على سهل الجزيرة انه مخزن حبوب السودان كافة . فلما استعادت الجيئود المصرية السودان بعد ثورة المهدي كانت زراعة القطن

وصناعته قد تدهورت فيه . وأصبحت ضئيلة أشد الضئالة
ولما قدم السرجارستن تقريره عن أملاك فسطاط مياه النيل
الأزرق لرى الجزيرة بدأت حكومة السودان في ديسمبر سنة ١٩٠٤
بمساحة أراضى هذا السهل المترامى الأطراف التى انشئت
لهذه المساحة قائمة بعملها حتى أتمت القسم الأعظم منه في سنة
١٩١٢ . كذلك منحت الحكومة خطا حديديا مابين الخرطوم
وسنار بدأت العمل فيه في سنة ١٩٠٩ ووصلت به الى سنار
في سنة ١٩١٢ ثم اخترقت به ارض الجزيرة من جنوبها حتى
وصل الى هوستى على شاطئ النيل والابيض اتجه الى بلدة
الابيض . وفى الانشاء بدأت الحكومة تجربة زراعة القطن
فاقامت في سنة ١٩١١ محطة طلبات عند بلدة الطيبة على
الشاطئ الغربى للنيل الأزرق وحفرت الترع التى تأخذ مياهها
من محطة الطلبات هذه لتغلى ثلاثة آلاف فدان زيدت بعد ذلك
الى خمسة آلاف . وعهدت حكومة السودان في القيام بهذه
التجارب الى نقابة زراعة السودان لما كان لهذه النقابة من سابقة
القيام بتجارب زراعة القطن بيزداد في شمال الخرطوم .
وبدا نجاح تجربة الطيبة نجاحا ياهرا في سنة ١٩١٣ . فدعا هذا
النجاح الى ضرورة التفكير في اصلاح طرق الاستغلال . وكان
لورد كشنر يومئذ قنصل بريطانيا الجنرال في مصر .
فتوسط في الامر وأتم الاتفاق على ان تكون حكومة السودان مسؤولة
عن الترع الكبرى في كل ناحية بزرع القطن فيها وان تكون نقابة
زراعة السودان مسؤولة عن الترع الصغرى وعن ادارة المشروع
كله وأمداد المزارعين بالاموال اللازمة لهم وان يقوم المزارعون
بالعمل في الاراضى وان يوزع محصول القطن الناتج من الزراعة
بنسبة خمس وثلاثين في المائة منه للحكومة وخمس وعشرين في
المائة للشركة والمزارعون في المائة الباقية تكون للمزارع كما تكون
له سائر الحاصلات التى تنتجها الارض
في هذه السنة عيها ، سنة ١٩١٣ ، وعلى اثر زيارة لورد
كشنر للسوفان مع الفنيين فرى الى من رجال الحكومة المصرية

وبعد أن رفضت الحكومة المصرية ضمان القرض الذي أريد إصداره بمبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات لأقامة خزان سنار ونجاح مشروع رى الجزيرة ، فى هذه السنة أقر البرلمان البريطانى الحكومة الانكليزية على ضمان هذا القرض ، وعلى ذلك بدئت الاعمال التمهيدية لبناء الخزان فى سنة ١٩١٤ . لكنها توقفت عندما شبت نيران الحرب الكبرى .

وقد رفضت الحكومة المصرية اذ ذاك ضمان هذا القرض لانها رأت الامل ضعيفا فى استرداد ما دفعته للسودان سدادا لعجز ميزانيته بما بلغ احد عشر مايونا من الجنيهات ، ولان السياسة الانكليزية كان ظاهرا ميلها الى استئثار انكلترا بالسودان بعد ان تكون مصر قدمت له من الاموال ما مكنه من الاستقلال ماليا عنها وربما كان للحكومة وللجمعية التشريعية عن ذلك من العذر ان الاموال التى دفعتها مصر للسودان فى السنوات المتعاقبة كانت ملايين عدة . وضمان مصر لقرض الجزيرة قد ينتهى بان تدفعه مصر فتضاف هذه الملايين الى تلك لتعود فائدتها اخر الامر على انكلترا وحدها . غير ان طائفة من المصريين كان لهم رأى غير هذا الرأى . وكانوا يعتقدون ان كل عمل هندسى او مالى يربط مصر بالسودان يقوى حجة مصر فى السودان ويكون نقطة ارتكاز لارولية مصر فى ان تمسك بيدها تصريف مياه النيل وبذهبون الى اكثر من هذا اذ يقولون ان حكومة السودان كانت على استعداد لان يشترك المصريون ملاكا ومزارعين فى استغلال سهل الجزيرة ولكنهم اظهروا اعراضا تاما عن هذا الاشتراك كما اظهرت الحكومة المصرية الرغبة كل الرغبة عن ان يكون لها فى استغلال السودان يد او رأى .

وربما كان هذا الذى يقال صحيحا . وربما كان مركز مصر فى السودان غير ما هو اليوم لو ان الحكومة المصرية ضمنت قرض الجزيرة الاول الذى زيد بعد انتهاء الحرب الاولى من ثلاثة ملايين الى ستة لارتفاع أسعار الخامات والاجور اللازمة لاتمام بناء الخزان . وربما

كان من الخير حقا لو ان المصريين ذهبوا لاستغلال هذا السهل المتراعى الاطراف وحققوا بذلك تحقيقا فعليا حجتهم بان السودان هو المهجر الطبيعي لهم فلا سبيل لفصله عنهم . لكن هذا الذى تبدو صحته اليوم لم يكن واضحا مثل هذا الوضوح قبل الحرب حين كانت انكلترا صاحبة السلطان الفعلى المطلق فى مصر ، وحين كان المصريون فى شدة حذرهم من سلطانها فى السودان يخافون ان يتقدموا نحوه خطوة . لذلك كان لحكومته يومئذ ، اوبلاخرى كان للجمعية التشريعية التى رفضت ضمان الحكومة المصرية قرض الجزيرة ، العذر كل العذر عن هذا القرار .

تحت مصر اذن عن الاشتراك فى استغلال سهل الجزيرة فاقدت انكلترا بتشجيع لورد كتشنر على الافراد بهذا الاستغلال واقصر البرلمان البريطانى ضمان الحكومة الانكليزية قرض الجزيرة فبدىء بالاعمال التمهيدية لانشاء خزان سنار ، ثم استعرت نار الحرب فاوقفت هذه الاعمال . لكن ايقافها لم يمنع من الاستمرار فى قيام نقابة زراعة السودان باجراء تجارب جديدة خصوصا بعد ماقرر ان تكون مساحة الاراضى التى يروىها خزان سنار ثلاثمائة الف فدان يزرع ثلثها قطن فى كل عام . فانشات النقابة المذكورة فى اوائل سنة ١٩١٤ محطة طلبات جديدة فى بركات لرى ستة آلاف فدان . ثم انشات بعد ذلك محطة اخرى لرى ١٩٥٠٠ فدان فى ناحية الحوش بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢١ ، ومحطة رابعة فى وادى النو لرى ثلاثين الف فدان بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢٢ وكان هذا الاستغلال على قاعده زراعة الثلث قطنا والثلث ذرة ولوبية وترك الثلث الباقى بغير زرع . اى على قاعدة الدورة الثلاثية

ولم تكن غاية حكومة السودان ولا نقابة زراعة السودان من انشاء محطات الطلبات هذه مجرد القيام بتجارب لزراعة القطن . فقد كانت تجربة الطيبة كافية منذ سنة ١٩١٣ . لكن زراعة القطن كانت قد اندثرت من السودان قبل ثورة المهدي بزمن غير قليل . والمصريون المدربون على زراعة القطن رفضوا الاشتراك فى

الاستغلال . وقد عطلت الحرب استمرار القيام بأعمال انشاء الخزان . فرأت الحكومة ورات النقابة الاستفادة من هذا الظرف لتدريب اكبر عدد ممكن من المفتشين الانكليز ومن اهالى السودان ومن الوافدين عليه من النيجيريا وغير النيجيريا على القيام بهذه الزراعة ومراقبتها حتى اذا تم بناء الخزان وكانت الترع والقنوات فى الثلاثمائة الف فدان التى أعدت فى المشروع قد تم انشاؤها امكن زرع ثلثها او ما يقرب من الثلث فطنا دفعة واحدة بمعرفة هؤلاء الانكليز المفتشين والاهالى المزارعين الذين تدرّبوا على زراعته . وقد انبت الزرع بعد نظر الحكومة والنقابة فى هذا التّسار اد امكنت زراعة ثمانين الف فدان فطنا على اثر تمام بناء الخزان مباشرة فى شتاء سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٦

اما هذه الثلاثمائة الف فدان التى تقرر منذ البداية أن يتكون منها مشروع رى الجزيرة فتمتد على الشاطئ الغربى للنيل الأزرق مبتدئه عند قرية الحاج عبدالله على بعد سبعة وخمسين كيلومترا الى شمالى مكوار حيث يقوم الخزان . (وقد نسي الناس فى السودان اسم قرية الحاج عبدالله واصبحت هذه النقطة معروفة عند المهندسين باسم الكيلوسبعة وخمسين) . ثم تستمر فى امتدادها شمالا على محاذاة النهر وسكة الحديد مدى خمسة وثمانين كيلو مترا . ويختلف عرضها من الشرق الى الغرب بين اربعة عشر وخمسة وعشرين كيلو مترا . ويسير وامامك هذه الابعاد أن تتصور هذه القطعة من السهل المظمن لا تقوم عليه ربوة من الربى ولا عقبه من العقبات محاذاة النيل الأزرق المخصب ، وان تتصور انى جانب ذلك أنها ليست الا جزءا من عشرة اجزاء من تلك الاراضى التى يمكن ردها بالمشروعات والتى تبلغ ثلاثمائة فدان من خمسة ملايين هى مجموع مساحة سهل الجزيرة . وان تتصور اخيرا ان هذه الثلاثمائة الف فدان تفررت سنة ١٩١٣ وها هى حكومة السودان ونقابة زراعة السودان تراها الآن غير كافية

بالحاجة الزراعية مع انها لم يبدأ بزراعتها الا عام ١٩٢٥ -
١٩٢٦

وهذه الثلاثمائة الف فدان ، كغيرها من اراضي سهل الجزيرة ، لم تكن ملكا لحكومة السودان وهي ليست الآن ملكا لها . بل هي في ملك اهالي السودان الذين كانوا يزرعونها على المطر جنوبا جعلت الجزيرة - كما سلفنا - مخزن جنوب السودان . وقد رأت الحكومة ان نظام مشروع الجزيرة لا ينتج ثمراته اذا بقيت هذه الاراضي تحت يد ملاكها . ورات من ناحية اخرى انه لا بد لنجاح المشروع من ان تكون للاهالي مصلحة مادية فيه . فاستاجرت اراضي المشروع لمدة اربعين سنة بيجار سنوي عشرة قروش للفدان كما اشترت الاراضي اللازمة للترع الرئيسية وغير الترع الرئيسية من المنافع العامة بتمن جنيه واحد للفدان . ولما كتبت مساحة هذه الاراضي قد حددت تحديدا دقيقا بمعرفة الهيئة التي نوهنا من قبل بذكرها والتي اتمت عملها في سنة ١٩١٢ وسجلت املاك الاهالي باسمائهم فقد كانت المعاملة بينهم وبين الحكومة لاثير نواها من هذه الجهة

على ان هؤلاء الاهالي الذين استاجرت الحكومة لراضيهم يجب ان يكون لهم الى جانب هذا الاجار الذي يبدو ثافها فشيلا متى استغلت الارض بزراعة القطن مصلحة اخرى تجعلهم لا يتدمرون ولا يشعرون باز حيفا وقع عليهم . وقد حلت الحكومة والنقابة هذه المسألة بصورة تراها وتحكم على عدالتها بعد ان نصيف لك كيف نظم ري الجزيرة .

اصبحت الثلاثمائة الف فدان اذن في حيازة الحكومة التي استاجرتها . وهذه الثلاثمائة الف فدان تحاذي ترعة الجزيرة جينا وتحيط بها حينا . وقد قسمت الحكومة والنقابة هذه الساحة الى تسع عشرة قطعة كل منها تبلغ نحو خمسة عشر الف فدان ثم قسمت كل قطعة مساحات مربعة . ونهر الترع الرئيسية الاخلة من بركة الجزيرة وبين كل واحد وما

بعدها نحو ١٥٠٠ متر . ومن هذه الترع تروى الأرض عن طريق فتحات منتظمة أدق نظام وقد رأت الحكومة أن قدرة المزارع في الاستغلال الصالح لا يمكن أن تعدو العمل في ثلاثين فدانا يزرع منها عشرة أفدنة قطنا وعشرة ذرة ولحوية ويترك العشرة الباقية بغير زراعة . لذلك جعلت هذه الثلاثين فدانا وحدة ما يضع الرجل عليه يده في أراضي الجزيرة . وملاك الأرض الاصليون يفضلون على من سواهم في الاستغلال . فكل مالك يضع يده على ثلاثين فدانا من أرضه . ولكي لا يشعر كبار الملاك بأنهم غبنوا في تاجيرهم أراضيهم للحكومة جعلت القاعدة أن يكون للمالك حق اقتراح الأشخاص الذين يستغلون سائر ما استأجرته الحكومة من ملكه . وهو غالب الأحيان يقترح من يتصلون به بصلة القربى . وما دامت تقارير المفتشين من هؤلاء المزارعين صالحة فلا محل لاجلائهم عن الأرض التي يستغلونها

أشرنا إلى أن محطات الطلبات هي التي قامت بالتجارب الأولى كما قامت بتدوين المزارعين على طرق الاستغلال وأدواته ، والتي استمرت كذلك إلى أن تم بناء الخزان في سنة ١٩٢٥ بعد أن بدأت الأعمال الأولى التمهيدية فيه في سنة ١٩١٣ ، وأشرنا كذلك إلى أن هذه الأعمال أوقفت على أثر إعلان الحرب العالمية في سنة ١٩١٤ . فلما انتهت الحرب عاد المسيو السنديني الذي وكلت الحكومة إليه المشروع بياشر أعمال الإنشاء . لكن ارتفاع الأسعار على أثر الحرب جعل المبالغ التي قدرت لامتصاص البناء غير كافية . على أنه استمر في العمل لحساب الحكومة وبأشرف منه قسما غير قليل . وفي هذه الأثناء رأت حكومة السودان أن خطة الإنشاء على هذه الصورة ، صورة الحساب الجاري ، تبطل بالنفقات . فلما قررت الحكومة البريطانية رفع قرض السودان إلى ستة ملايين طرح أكمل بناء خزان سنار في المناقصة ورسامى محلات بيرسون وأولاده بقتن قبداوا العمل فيه منذ أبريل سنة ١٩٢١ ، وهم الذين

وسبقنا الى وصف الخزان حين تمر فوقه . وذكرنا ان طوله ومعه الحوائط الصماء يبلغ ٣٢٥٠ مترا مد عليها شريط سكة الحديد استعدادا لانشاء خط مكوار - كسلا . ونثبت الان مذكرة فنيه عن خزان سنار وضعها الفنى بك الذى كان مدير اعمال تفتيش رى مصر بالخرطوم وتكرم باطلاعنا عليها كما تكرم بايقافنا على ما طلبنا من المعلومات الخاصة بهذا المشروع وبمشروع جبل الاولياء . وان كان قد اعتذر عن الافضاء لنا بما راي ان وظيفته لا تسمح الافضاء به فتحات السد معولة باتساع يسمح بمرور اكبر تصرف للنيل الازرق وزيادة وهو ١٥٠٠٠ متر مكعب فى الثانية والفتحات كالآتى :-

اولا - الفتحات السفلى وعددها ٨٠ وعرض كل واحدة ٢ متر وارتفاع ٤٠ و ٨ ومنسوب العتب ٢ و ٤٤ ويعمل عليها الموازنة ببوابات حديد تفتح بواسطة ونش بخارى .
ثانيا - الفتحات العليا وتسمى فتحات التخفيف وهى ٢ فوق الفتحات السفلى وعرض كل واحدة ٣ متر وارتفاعها ٢ متر وهذه الفتحات يعمل عليها الموازنة بواسطة اخشاب غما افقى وترفع بهلب باليد

ثالثا - يوجد بالجهة الشرقية من الفتحات المبينة عليه ٢٠ فتحة عليا ومثلها فى الجهة الغربية - وعرض كل فتحة ٥ متر وارتفاعها ٢ متر - وعتب عموم الفتحات العليا على منسوب ٢ و ١٧ وتفتح وتغلق بواسطة اخشاب غما افقى سعة الخزان وملوه وتغريفه :

اولا - اعلا منسوب تصل اليه المياه امام الخزان هو ٧ و ٢٠ ويخزن على هذا المنسوب ٦٣٦ مليون متر مكعب

ثانيا - فى اوان يوليو من كل سنة يكون منسوب امام الخزان على ٥ و ١٤ ويرتفع تدريجيا فى مدة خمسة عشر يوما الى ٢٠ و ١٧ لاعطاء مياه لرى انقطن بالجزيرة وتحفظ المياه على هذا المنسوب الى اول نوفمبر .

ثالثا - من اول نوفمبر الى ديسمبر يرتفع منسوب المياه

تدرجيا الى ٧ و ٢٠ و يبقى على هذا المنسوب الى ١٨ يناير .
رابعا - من ١٨ يناير تأخذ الجزيرة كافة احتياجاتها من الماء
المخزون امام والتصرف الذى يكون فى النيل الازرق فى
الروصيرص اى تصرف النهر الطبيعى يمر خلف الخزان كما هو
لاحتياجات القطر المصرى لفاية اول يوليو حيث يتكرر الترتيب
المبين عليه .

ملحوظة - قد اتبع نظام خاص فى الحجز على الخزان منذ
زمن لعدم اخذ مياه كثيرة فى يوليو يمكن أن يحصل منها ضرر للقطر
المصرى وفى اول ديسمبر من هذا العام تم حفظ امام الخزان على
الدرجة المطلوبة وهى ٧ و ٢٠
ترعة الجزيرة :

اولا - فم التربة عبارة عن ١٤ فتحة عرض الواحدة ٣ متر
وارتفاع ٥ متر والعتب على منسوب ١٠ و ١١ - من هذه الفتحات
سبع مقفولة بالخرسانة المسلحة، وتعمل الموازنة بواسطة بوابات
حديد ترفع بونش يدار بواسطة رجلين .

ثانيا - التربة عرض قاعها ٢٦ مترا وارتفاع المياه بها ٣٥ ر٤٥ متر
وانحداره ٧ سنتى فى الكيلو وذلك كاف لرى المساحة الحالية وهى
٣٠٠٠٠ فدان ومسطاح التربة يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام
ثالثا - اول قناطر حجز على التربة عند كيلو ٥٧ ويتفرع امامها
خمس ترع ومصرف على النيل لتخفيف المياه بالتربة وعند هابدا
الرى بالجزيرة وكل الرى بالراحة

رابعا - ثانى قناطر حجز عند كيلو ٧٧ وامامها ثلاث ترع
ومصرف على النيل للتخفيف ثم قناطر حجز اخرى عند كيلو ٩٩
ثم عند كيلو ١٤٤

الأرض المقرر زراعتها بالجزيرة

وقد تم رى ثمانين الف فدان قطن و ٩٠٠٠ فدان ذرة
وعشرة آلاف لوبيا والزراعة حالتها حسنة
والمقرر هو أن يزرع مائة الف فطنا ومثلها ذرة ويقولوا وتترك
مائة الف فدان يورا

السبع فتحات المقفولة بغم التربة والمسطح المتروك بالترعة
يسمحان بزيادة الزمام الى مليون فدان

* * *

وقد طرا على بعض ماقى هذه المذكرة تعديلات فيما يتعلق
بالتواريخ التى تبدأ فيها حاجة مصر لتصرف النهر الطبيعى نعرض اليها
حين الكلام عن مشروعات ضبط النيل كافة . كما ان سعة الخزان
بعد ملئه للمرة الاولى تبين انها ٨٠ مليون متر مكعب .
والمنايب المذكورة فيها مذكرة بالمقارنة الى ارتفاع مياه البحر
الايض المتوسط . اما ماورد عن مسطح التربة وكونه يسمح
بتوسيعها عند زيادة الزمام فذلك لان الخزان يتسع لخزن
مياه تكفى زراعة نصف مليون فدان أى ضعف المساحة الحالية
الا قليلا . والسبع الفتحات المقفلة بالخرسانة من فتحات
ترعة الجزيرة يكفى لامدادها هذا المقدار بالمياه اللازمة له

ويحسن ان ننبه القارىء كى يسهل عليه ادراك حكمة تواريخ
الماء والتفريغ الواردة فى هذه المذكرة الى ان زراعة القطن
بالسودان تبدأ فى اواخر شهري يوليو واوائل شهر اغسطس .
فرفع مستوى الماء فى الخزان من ١٤٥ الى ١٧٢ فى النصف الثانى
من شهر يوليو انما يقصد به الى تغذية ارض الجزيرة بمياه
الراحة اللازمة لرى الارض وزرعها قطننا . ويبقى هذا
المنسوب ثابتا الى شهر نوفمبر حين تخلو مياه النهر من الطمى
ويمكن التخزين . وفى شهر نوفمبر يرفع منسوب التخزين
فى سنار الى مستوى ٢٠٧ ويبقى الى ان تبدأ حاجات مصر
للماء لزراعة القطن ولتغذية النهر . واذا كانت اولوية مصر
امرا مقررنا معترفا به من الجميع فندد وجب البدء فى تفريغ الخزان
بحيث تاخذ اراضى الجزيرة كل حاجاتها منه ويبقى تصرف النهر
الصيىمى وقفا على مصر . والواقع ان حاجة اراضى الجزيرة للماء
تقل بعد شهر يناير الذى تبدأ فيه الجنية الاولى من جنسيات

القطن وتنتهى في شهر مارس فلا تبقى ثمة حاجة لغير مياه الشرب . وهذه يكفيها مامقداره تصرف عشرة امتار في الثانية .
فاذا كان شهر يوليو وابتدأت الحاجة الى المياه في الجزيرة لزراعة القطن وابتدا الفيضان يجعل رفع الماء في الخزان غير ضار بحاجات مصر بدىء فى عملية رفع المياه في الخزان من جديد



لكن مسطح ارض الجزيرة يبلغ ، كما سبق القول ، خمسة ملايين من الافدنة او يزيد . والنية متجهة الى استغلال بلانة ملايين منها . فكيف السبيل الى هذا الاستغلال وخزان سنار لا يكفي مايجزئه من المياه الالرى نصف مليون واحد ؟ ام ان مشروع الجزيرة مايزال واقفا في ذهن اصحابه عند رى هذا النصف المليون الواحد من الافدنة ؟

لا هذا ولا ذاك . والفكرة الانكليزية متجهة كل الاتجاه الى رى ثلاثة ملايين من افدنة الجزيرة واستغلالها لزراعة القطن الطويل التيلة . والوسيلة الى ذلك في نظرهم ليست تعلية خزان سنار ولكن اقامة حجر على بحيرة تسانا في جبال الحبشة لحجز ماينزل في هذه البحيرة من الامطار مما ينحدر اثناء الفيضان مع مياهها في النيل الازرق ويذهب ضياعا في البحر الابيض المتوسط . واذا كان خزان سنار الذي يتسع لحجز ٨٠٠ مليون من الامتار المكعبة يكفي لرى نصف مليون من الافدنة فمن الممكن حجز ثلاثة مليارات ونصف مليار على بحيرة تسانا ، ولهذه الغاية جرت مفاوضات جدية بين حكومة بريطانيا وحكومة الحبشة انتهت باقامة الخزان

والظاهر ان هذه الفكرة ، فكرة الحجز عند تسانا ، لم تكن متمكنة من نفوس الذين بدأوا مشروع رى الجزيرة في سنة ١٩٠٤ وفي سنة ١٩١٢ . فقدروي لى أحد كبار الفنيين من رجال الرى ان حكومة الحبشة عرضت قبل الحرب ان يدفع لها

ربيع مليون من الجنيهات اذا ارادت مصر لو السودان اقامة
حجز على تسانا ، فرفضت الحكومتان المصرية والبريطانية
هذا العرض . اما اليوم فحكومة الحبشة تطلب هذا المبلغ جزية
سنوية مقابل انتفاع من يريد الانتفاع باراضى هذه البحيرة
وقد يتساءل بعضهم : كيف يحجز المياه التى تسقط في فصل
الامطار في بحيرة تسانا مع ان هذه البحيرة هى التى تفدى
النيل الازرق اثناء الفيضان . وماء النيل الازرق في هذه الفترة
مشبع بالطمي فيجب ان تكون مياه تسانا مشبعة بالطمي كذلك .
فاذا حجزت راسب الطمي في قاعها فارتفع هذا القاع وبلغ من ارتفاعه
على تطاول السنين ان تغطي كلها . وهذا تساؤل من لا يعرف
مصدر الطمي وطبيعة اراضى البحيرة المذكورة . فهى صخرية
واقعة في مرتفع جبالى . ومياه الامطار التى تنزل اليها تنزل
اكثر صفاء من مياه النيل في اى وقت من اوقات السنة . فاما
الطمي فيتكون من اختلاط مياه الامطار بسفوح جبال الحبشة
ومن انحدر الماء المشبع بتراب هذه السفوح الى مجرى النيل
الازرق بعد خروجه من بحيرة تسانا . لذلك كان حجز هذه
المياه في هذه البحيرة منذ نزول الامطار فيها صالحا من الجهة
الفنية غاية الصلاح وكانت خزانا طبيعيا بديعا لري سهل الجزيرة
ولترك ما يفيض من الماء ينحدر الى مصر
على ان الحكومة البريطانية كانت تتباطأ في مفاوضاتها مع الحبشة
بهذا الشأن بعد ما بدأ لمشروع الجزيرة وجه من الصعوبة
لا يتعلق بالرى ولكن يتعلق بالافات التى اصابته زراعة القطن
فيها . فقد كانت نتيجة زراعة القطن في اول امره تفوق كل
تصور ، اذ انتج الفدان من السكر اريدس اكثر من خمسة
قناطير ونصف قنطار . لكن امراضا غير معروفة في مضر وما
تزال اسبابها الحقيقية فامضة سرعان ما اصابته النباتات
فأضعفت من متوسط محصول الفدان اضعافا جعل حكومة
السودان . والحكومة البريطانية تفكر ان في الامر تفكيرا جديا .
ونظرة في الاجراء الرسمى عن حاصيل الفدان في الاماكن

المختلفة والسنين المختلفة تقنع القارئ بأن الامر يستحق التفكير بالفعل :-

السنة	الطبية	بركات	الحوش	وادي النور
١٩١١ - ١٢	٥٣٢	-	-	-
١٩١٢ - ١٣	٥٦٢	-	-	-
١٩١٣ - ١٤	٣٨٠	-	-	-
١٩١٤ - ١٥	٣١٠	٥٣٩	-	-
١٩١٥ - ١٦	٣١٠	٣٤٨	-	-
١٩١٦ - ١٧	٣٤٧	٣٢٠	-	-
١٩١٧ - ١٨	٤١٠	٢٦٦	-	-
١٩١٨ - ١٩	٤١٣	٣٥٠	-	-
١٩١٩ - ٢٠	٥٦٠	٤٩٨	-	-
١٩٢٠ - ٢١	٣٢٠	٣٥٠	-	-
١٩٢١ - ٢٢	٣٤٦	٣٨٤	٤٣٢	-
١٩٢٣ - ٢٤	٤٩٠	٤٠٠	٣٤٠	-
١٩٢٣ - ٢٤	٢٥٤	٢٨٧	٢٨٨	٨٨ و ٢
١٩٢٤ - ٢٥	٢٣٣٨	٢٢٨٨	٢٣٩٠	٢٠٤٦ و

هذا الاحصاء صريح في الدلالة على خطر الحالة وتطلبها العناية والبحث . لذلك قامت الجمعية الامبراطورية لزراعة القطن بالاشتراك مع نقابة زراعة السودان ومع حكومة السودان بوضع برنامج شامل للمباحث التي يجب ان تعمل لفحص اسباب هذه الامراض ووسائل علاجها . وتكونت بلندرة هيئة استشارية مثلت فيها هذه الجهات الثلاث ، وظيفتها فحص التقارير الزراعية الخاصة بمشروع الجزيرة واسداء النصيحة فيما يجب القيام به من المباحث في العام الذي يلي هذه التقارير

اما مزرعة مباحث الجزيرة الكائنة على مقربة من واد مدني والممتدة على مساحة قدرها ثلثمائة وخمسون فدانا فقد امدت بما

يجب لبحث المسائل التي تحسن زراعة الجزيرة . فأقيمت المعامل ليعمل فيها علماء للنظر فيما يقتضيه البحث الكيميائي والنباتي ولاجراء التجارب الخاصة بانتقاء بذرة القطن التي يمكن أن تصلح في أراضي الجزيرة من غير أن تصاب بما أصيبت البزرة القديمة به من الآفات .

وأكبر ظن القنيسين في الوقت الحاضر أن هذه الآفات التي تفشت في زراعة القطن سببها رطوبة الأرض بعد ريها ربا صناعيا ، وأن هذه الرطوبة لم يقف أثرها عند توليد جراثيم لا تصيب الا ظاهر شجرة القطن بل تولدت عنها جراثيم امتدت الى بذور القطن نفسه . على أن هذا ما يزال في حيز الظن الى أن تجلو المباحث العلمية الحقيقة

غير أن تباطؤ الحكومة البريطانية في المفاوضات الخاصة بمشروع تسانا لم يشنها عن مطالبة الحكومة المصرية بزيادة الثلاثمائة ألف فدان التي كانت تزرع في الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الفا . وقد بحث هذا الطلب بعد صدور الانذار البريطاني لمصر على اثر مقتل سيري . متاك بما شافى القاهرة مما سنفضله في الفصل القادم .

يوم في جبل الأولياء مشروعات الري الكبرى

كانت زيارة جبل الأولياء ومشاهدة ما تم هناك من الأعمال لإنشاء قنطرة الحجز التي أريد تشييدها لفائدة الري في مصر خاصة ، من أول ما عنت به منذ نزلت الخرطوم . وذلك بأن الحكومة المصرية كانت قررت هذا المشروع . وبأن الأعمال كانت سائرة فيه على مهل حقاً ولكنها كانت مستمرة في انتظار طرحه للمناقصة العامة وتولى أحد البيوتات الهندسية الكبرى إقامته . ولم يتم أحد باعتراض جدي على هذه الأعمال واستمرارها منذ انتهت اللجنة الدولية التي بحثت الخلاف الذي كان حاصلًا بشأن مقاييس مشروعات ضبط النيل بين السير وليم ولكس والمستر كندى من ناحية والسير مردخ ماكدونالد من الناحية الأخرى . فمن يوم حكمت هذه اللجنة بصحة نظرية السير ماكدونالد وبطلت ما تمسك به خصمه في شأن المقاييس التي أقام هو عليها حسابها وفي شأن توزيع المياه من طريق قنطرة الحجز بين مصر والسودان توزيعاً لا يضر أولوية مصر التاريخية - من ذلك اليوم استمرت الأعمال في مكوار إلى أن تمت إقامة خزان سنار ، وأرادت الحكومة المصرية الاستمرار في تشييد خزان جبل الأولياء لولا أن الأموال التي قدرت من قبل الحرب لإقامة هذا الخزان وقدرها مليون من الجنيهات لم تصبح كافية بسبب الغلاء الذي عقب الحرب ، وأن الحكومات المصرية التي كانت تتوالى في ذلك الحين كانت في وضع سياسي غير منظم لم يمكنها من تقرير الاعتمادات اللازمة لإنشاء خزان جبل الأولياء . فلما توالى الحكومات بعد إعلان مصر استقلالها لم

تستطع احداها الفصل في الموضوع الى ان تولى معالي اسماعيل باشا سرى وزارة الاشغال منذ اواخر سنة ١٩٢٤ الى شهر مايو سنة ١٩٢٦ . واذا كان معالية ممن عملوا في تقرير مشروعات الري ومن بينها جبل الاولياء فقد قررت الحكومة التى كان فيها الاعتمادات اللازمة للسير في العمل .

والى ذلك الحين لم تكن فكرة اعمال خزان جبل الاولياء وتعليه خزان اسوان الحالى تعليه ثانية قد وجدت انصارا في الحكم ولا كانت قد وجدت انصارا اقوياء خارج الحكم . لذلك كان طبيعيا ان اتمكن من الذهاب اليه صبيحة يوم الثلاثاء ١٩ يناير اذ كان برنامج حفلة افتتاح خزان سنار خاليا يومئذ . لكن اشتغال مواطنينا القائمين بامر جبل الاولياء باستقبال سرى باشا وزير الاشغال لم يجعل اجابة طلبى هذا ميسورة . فقضيت اللبلاء بأم درمان وانتظرت الى يوم السبت الذى يلى وصولنا الى الخرطوم بعد حفلة سنار ، وفي هذا اليوم أعددت عدتي للذهاب مع مفتش رى جبل الاولياء محمد بك صبرى شبيب الذى تفضل بدعوتى كى اصحبه في سيارته .

تقع قرية جبل الاولياء على بعد خمسة واربعين كيلو مترا الى جنوب الخرطوم على النيل الابيض . وقد اخترت بعد ان اثبت جس قاع النهران القاع صخرى عندها فلا يحتاج الى نفقات جسيمة يجب اتفاقها للوصول الى طبقة صخرية بعيدة عن القاع بعدا كبيرا . وكانت قد دارت بخاطر السر ولیم ولككس خوالى سنة ١٩٠٩ فكرة انشاء قنطرة الحجز على النهر بين الخرطوم وام درمان لتغنى في الوقت نفسه عن اقامة جسر بين عاصمتى السودان . لكن هذه الفكرة اهلكت لما كان يترتب على الحجز من اتساع مسطح المياه اتساعا يضر البلدين جميعا ضررا جسيما

كنت اود لو استطعت بدل الذهاب في السيارة ان اركب السفينة التى يسافر فيها المهندسون من الخرطوم الى جبل الاولياء ، لكن قيامها في منتصف الساعة السادسة صباحا



وكانت عربة القطار التي يحلها السيد المرغنى أكثر حياة
وبركة من ضريح

وخشيتى عدم التبكير فى اليقظة عدلا بى عن هذا الميل . فلما استيقظت فى الصباح الفيت الوقت مبكرا مما جعلنى أود لو وجدت الوسيلة لاخطار مواطنينا المسافرين على ظهر النهر . وزاد هذا الميل عندى ما كان من ضحو السماء ودفع الجو وتفريد العصافير فوق اشجار الفندق . لكنى بعد قليل من التفكير وانا ما ازال فى سريرى ممتعا بما حولى من دواعى الكسل عدت ففضلت ان اتناول افطارى على مهل فى انتظار مجيء السيارة فى الساعة السابعة والنصف . وقبل هذا الموعد كنت قد اتممت عدتى وغادرت الغرفة الى شرفة الفندق حيث انتظرت الى حين حلوله . ولم يحضر صبرى بك فنزلت الى الشارع الفخم المحاذى للنيل الازرق اسير فيه ذهابا وجيئة . ووصلت من مسيرتى الى حديقة الحيوانات فدخلت اليها وطففت ارجاءها وتمتعت فى هذا الوقت الظريف الرقيق هواؤه الهادئة شمسها بمناظر الغزال والنعام وما تزال هى الاخرى ناعمة بيقظة النهار وانطواء بساط الليل . واذا كانت الحديقة لا تبلغ ركننا من اركان حديقة القاهرة فقد خرجت منها بعد ربع ساعة . ويمت الفندق من جديد . واذا وصلت الى بابيه كان صبرى بك قد دخل يسأل عنى فتبادلنا التحية وركبنا السيارة التى اخترقت بنا شوارع الخرطوم وتخطت الى فضاء كفه الصحراء

نعم كانه الصحراء . ! فهوليس صحراء كسالتى قطعها القطار بين حلغا وابى حمد والتى لا تعرف من صور الحياة غير « التكللات » المنقطعة عن المحطات من نمرة ١ الى نمرة ١٠ . لكنه مع ذلك رسال قسيحة ممتدة يقدم عليها الحين بعد الحين « ديم » به بعض تكللات تشهد ان الحياة به غير منقطعة كل الانقطاع وتضفيها شجيرات يدعوتها « العشار » اشبه شئ فى اقمائها على الارض وفى قتام لون ورقها وفى صمتها الموحش لا يبعيه طير ولا حشرة بتلك الشجيرات التى تقوم الى جانب كثر من مقابر الارياب . وفوق هذه الرمال

وبين تلك الشجيرات ظلت السيارات في انطلاقها بسرعة وظللنا لا نرى انسا مدى ساعة ونصف الساعة . وحتى هذه « التكلات » القائمة في بعض « الديم » والمبينة من الطين . لم يتم حولها رجل ولا امرأة . ثم بلغنا قرية جبل الاولياء . وهى اقرب للكفور والعزب منها لقرى الريف . بل اقرب للكفور والعزب الصغيرة منها الى العزب الكبيرة . . ومن قبل ان نمر بهذه القرية تبدى امامنا جبل قليل الارتفاع هو الذى سميت باسمه القرية . وهو جبل قاحل من حجر جبرى كستته الشمس المحرقة لونا كالحا .

وتقدمنا نحو مستعمرة الخزان التى اقامتها الحكومة المصرية للمهندسين والعمال الذين سيقومون بالتشييد ومراقبته . وفى هذه المستعمرة منازل عدة وبها مستشفى وقد زرعت فيها بعض الاشجار . وسرنا بين هذه المباني التى اقيمت من حجر الجبل الى ان وصلنا مقر تفتيش جبل الاولياء ولعلك ان اردت ان تستوضح منه صورة موفى الى ذلك اذا كنت قد رايت بعض دواوين الهندسة فى مراكز مصر او بعضا من مباني المحاكم الجزئية ، هذه المراكز

دخلنا التفتيش وجاء الموظفون فاذا بى فى وسط مصرى خالص ، واذا احد هؤلاء الموظفين كاتب كثيرا ما ظهر اسمه على صفحات الجرائد المصرية على مقالات فى التفكير والاجتماع ، ثم رأى جبل الاولياء ووزارة الاشغال اكثر فائدة وجدوى من صناعة القلم .

وجعل صبرى بك ينظر فى اوراق التفتيش زمنا . ولما اردت ان اقف على بعض معلومات خاصة بالخزان ذهب الى غرفة مجاورة ثم

عاد يخبرنى ان المهندس المقيم مستر تمبر (The Resident Engineer - Mr. Tabor) يفضل أن نزور المباني التى تجاور الخزان وان نشهد مكان الخزان وان نرى الاستعداد للتشييد وما حوى هذا الاستعداد من تجارب هندسية كى امكن بعد ذلك من ان اطرح عليه ما اريد سؤاله عنه

وسرنا صوب النهر الى حيث تقرر بناء قنطرة الحجز مارين في طريقنا بسكك حديد ضيقة (ترولى) لنقل الاحجار والعمال . . ثم انعطفنا فتسلقنا الى حيث كان يقام بناء جديده للتفتيش يشرف على النهر ويمكن للمقيم به ان يرى العمل اثناء سيره وان يراقبه مراقبة دقيقة ، ولذلك سمي هذا البناء منزل الخزان . ومن عند هذا البناء تسلقنا من جديد قمة وضع فوقها حجر المحور كما يسمونه ومنه يرى الانسان على شاطئ النهر حجرين على خط مستقيم معه هما موضع بداية البناء عند كل شاطئ . وعلى حجر المحور هذا اعتاد الزائرون ان يكتبوا اسماءهم . وعليه كتبت اسمي انا ايضا مثلما يكتبون .

وانحدرنا من عند حجر المحور الى بناء التفتيش الجديد فالى شاطئ النهر ونحن نتحدث عن هذا الخزان وبنائه فلما كنا عند الشاطئ لفت نظرى حوض كبير فى الارض بنى من احجار الجبل فسالت عما هو . فاذا السير موريس فتر موريس المهندس الانكليزى العظيم فى شئون العمارة كان قد استدعى الى هذه المنطقة ليمد رأيه من الوجهة الفنية فيما اذا كانت احجار جبل الاولياء صالحة لاقامة قناطر الحجز منها أو أن ضروريا جلب احجار الجرانيت من ناحية مكوار او ناحية اخرى اقرب منها . وقدبنى هذا الحوض من حجر جبل الاولياء وملى بالماء لمعرفة تأثير الماء فيه ولتقدير قوة مقاومة القناطر التى تبنى منه . ومع أن هذا الحجر ثبتت قوته فقد ابدى الخبير الفنى رايه بأنه يفضل بناء القناطر من جرانيت وجد على مسافة اربعين كيلو مترا من جبل الاولياء ويقتضى نقله نفقات غير قليلة ، لكن النفقات يجب أن لا يقام لها حساب كبير عند اقامة أعمال هندسية لها صفة الدوام كقناطر الحجز تحزن مليارات الامتار المكعبة من المياه ذات الضغط الشديد

واستدرنا عند هذا الحوض الى ناحية صهريج ماء مرتفع واقع عند شاطئ النهر لتغذية بعض أعمال البناء والهندسة القائمة هناك وإلى جانب هذا الصهريج امتد فى وسط النهر جسر ضيق لا يتسع

لاكثر من شخص واحد يسير عليه ويصل بين الشاطي. وورشة عوامة سمعنا منها اصوات المطارق التي كانت تعمل لاتمام معدات الباخرة كسلا الواقعة الى جانبها توقفت بعد خطوات من الجسر هنية واجلت البصر فيما حولى. أين أنا الان ؟ ٠٠٠ هذا هو النيل امامى اراه كما اراه فى دمياط وفى المنصورة وفى القاهرة وفى أسنيوط وفى اسوان . وهذه شمس الشتاء الدافئة فوقى تبعث من خلال السماء العسافية البديعة الصفاء اشعتها المحسنة التى تتعاون مع الماء لبعث الحياة فى انحاء الوجود . وهذه هى الباخرة كسلا يقوم بالعمل لاعدادها جماعة من اخوانى المصريين . وهذه الاراضى المتسعة حولى اشبه فى طبيعتها السهلة رغم قيام جبل الاولياء فيها بطبيعة الوادى من مصر الى حلفا والى الخرطوم تقوم فوق اراضيه المنبسطة جبال لاتزيد على جبل الاولياء ارتفاعا . وهام السودانيون الذين خلفت بالخرطوم يتكلمون باللغة التى اتكلم بها ويدينون مثلى بالاسلام ويتصلون كما اتصل بفاض مجيد يعرف الفراعنة ويعرف الرومان ويعرف العرب . الست اذن فى بيئتى الطبيعية ؟ اليس هنا الصمت المحيط بى يوحى الى من العواطف والمعانى بما يوحى به صمت ارياف مصر : اوليس ذلك حجة على ان النيل المحسن 'ب لكل من اقام على ضفافه الفياضة بالخصب والخير والبركة ، فكل من اقلما على هذه الضفاف اخوان يجب ان ينعموا احرازا بخيرات ابيهم العظيم

وسرنا فوق الجسر الى الورشة العوامة وارتقينا فوق سطح الباخرة كسلا . وكسلا احدى بواخر وزارة الاشغال التى تقل المهندسين ومفتشى الرى المصريين ما بين الخرطوم والملاكال واعالى النيل الابيض وكانت فى هذا الحوض تجدد غرفها وسطوحها وتعد لراحة المسافرين عليها راحة كاملة . والشئ الذى تمتاز به هذه البواخر الصغيرة التى تسير فى اعالى النيل غرفة كبيرة من السبك يقيم بها المسافرين لتقيهم بعمل ناموس الملايا بهم .

والمسافرون يلجأوا في الشتاء الى هذه الغرفة نهارهم ويأوون الى الغرف العادية ساعات الليل . اما في الصيف فالغرف العادية لا تحتل ليلا ولا نهارا . عندئذ تصبح غرفة السلك هذه هي المأوى وهي الملجأ اليوم كله

وعندنا من حيث اتينا وغادرننا ورائنا كسلا والورشة العوامة وصهرج الماء والحوض الذي بنى من الحجر وارتقينا الشاطئ حتى وصلنا الى ورشة كبيرة سورت بحوائط من الصاج وقام بالعمل على وابوراتها جماعة من المصريين . وهذه الورشة مستعدة لكل ما يحتاج الامر اليه في اعمال التشييد والبناء .

ورجعنا الى تفتيش الرى وقابلت مستر تير المهندس المقيم الذي ابدى لى ، بعد تناول التحية ، تمام استعداده لاجابتي عن كل ما اريد ان اسأل عنه في شئون الخزان الفنية . قال : « اما الاعتبارات السياسية فليست من شأني ولذلك لاجواب لها عندي »

وقل ان نبدا الحديث اطلعنى على خريطة الخزان الذى يمتد - بعد تمام بنائه - من جبل الاولياء الى الدويم . ولما كانت هذه المنطقة تبدو للنظر رملية وكان تسرب المياه اثناء الرمال مما يسهل تصويره كان اول ما سألت المهندس المقيم عنه اذا لم يكن الخزان في هذه المنطقة من وادى لنيل مضيقا لكميات كبيرة من المياه خصوصا وان ارتفاعها في النهر مدة التخزين يجعل ضغطها على الرمال اكبر . ومن شأن ذلك ان يزيد كمية المتسرب خلال الرمال ؟ فكان جوابه :

« لقد ورد مثل هذا الخاطر بنفس الذين فحصوا هذه الارض قبل البت ببناء الخزان عليها ، فقاموا باجراء تجارب اقنعتهم ان الارض صماء لا تتسرب المياه خلالها اكثر مما تتسرب خلال اية منطقة جبلية . وما نزال نحن موالين اجراء مثل هذه التجارب وكل ما نقوم به منها يزيدنا اقتناعا بصلاح المنطقة للخزان . من هذه التجارب انا حفرنا ابارا كثيرة على شاطئ النهر ما بين

جبل الاولياء والدويم وتركنا هذه الابار ازمانا طويلة . وقد لوحظ ان هذه الابار لا تتأثر بالفيضان ولا بالتحاريق . فارتفاع الماء فيها وغيضانه منها لا علاقة له لبنة بارتفاع النيل وانخفاضه . وهذا دليل على ان تسرب الماء هذه الارض ليس يسرا كما قد يبدو للنظرة الاولى . وزادنا اقتناعا بصلاية الارض وعدم قابليتها للتسرب ان المياه في هذه الابار لم تكن ترتفع وتنخفض وتفيض بنسبة واحدة ولا في اوقات واحدة ، فمن هذه الابار ما كان يرتفع ماؤه اكثر من غيره ومنها ما كان يفيض فيه الماء بينما ما يزال غيره يرتفع الماء فيه . فضلا عن ذلك كله فان ارتفاع الماء في هذه الابار لم يصل يوما من الايام الى محاذاة ماء النهر ولم يزد يوما على ان كان ماء نشع كما يرى في اية منطقة غير منطقة جبل الاولياء وكما يرى بعض المناطق الجبلية الصخرية » هذه واحدة من التجارب . وتجربة اخرى اننا وضعنا اسطوانة نحاسية ارتفاعها خمسة امتار عمودية على هذه الرمال وملأناها بالماء . وتركناها اباما طويلة فلم ينقص الماء فيها اى نقص مما يدل على ان الرمال لم تتشرب منها شيئا

« واكثر من خمسين تجربة من هذا النوع اجريناها وكلها دلت على ان ارض هذه المنطقة صماء وان التخزين بها لا يخشى معه من تسرب الماء خلال الارض ولا من تشرب الارض للماء . فاذا لوحظ الى جانب ذلك كله ان مقدرة الارض على التشرب تنتهى كما تنتهى مقدرة الماء على اذابة اى مادة قابلة للذوبان - كالسكر والكلح - تلقى فيه ، وان فضان النيل في هذه المناطق يرجع الى الاف السنين لم يبق امامنا موضع للريبة في ان نظرية التسرب نظرية لا اساس لها »

لم اجد ما اعترض به على هذه الاقوال ، ولاحظ ذلك مستر تمبر . فانتقل من مسألة التسرب الى الحديث عن جبل الاولياء ووظيفته الحقيقية فقال :

« تعلم ان مصر بحاجة الى اربعة عشر مليارا من الامتار

المكعبة من الماء لامكان رى كل ما يمكن ريه من اراضيها القابلة للزراعة . وخزان اسوان الحالى لا يحجز اكثر من مليارين ونصف مليار . وخزان جبل الاولياء لن يقوم بحجز كمية اكثر مما يحجز خزان اسوان . ولا سبيل الى الحصول على التسعة المليارات الباقية لسداد حاجات مصر المائية فى مستقبل غير بعيد الا التخزين على البحيرات الاستوائية التى ينبع منها النيل الابيض . وهذه هى مشروعات الرى الكبرى التى يفكر فيها منذ زمان طويل - من ايام كان السير ويليام جارستن مستشارا لوزارة الاشغال المصرية . والمياه المخزونة فى المناطق الاستوائية لاتصل الى مصر قبل ثلاثة اشهر او ثلاثة اشهر ونصف . فلامفر والحالة هذه من وجود حوض منظم تحجز عنده كميات من المياه كافية للحاجات العاجلة ويمكن ان تصل الى مصر فى اسبوعين او ثلاثة اسابيع ذلك بانه اذا طلبت اسوان الماء اللازم لمصر من بحيرة البرت التى سيكون عليها الحجز العام فمن الواجب ان يطلب هذا الماء للحاجات التى تنتظر فى مصر بعد ثلاثة اشهر او اربعة . وقد يكون من الصعب التنبؤ بما سيكون من هذه الحاجات . ففى اثناء ثلاثة اشهر او اربعة قد ينزل من الامطار فى مناطق الحبشة او فى مناطق اخرى مايفنى مصر عن هذه المياه . وفى هذه الحالة - حالة ما اذا لم يكن هناك حوض منظم وكانت المياه تسيل من البرت لاصوان مباشرة - يضطر رجال الرى الى ترك هذه المياه تمر للبحر الابيض المتوسط وتضيع فيه . والغاية من اقامة قناطر الحجز انما هى التغادى من ترك الماء يضيع واستغاضه للانتفاع به عند الحاجة . فاما مع وجود خزان جبل الاولياء ، ومثلته كلما سحبت مصر المياه التى به ، والحجز بعد ان يتلى على بحيرة البرت فثم ما يكفل عدم طلب مصر الا ما تنوعسه من حاجاتها الى الماء بعد الاسبوعين او الثلاثة الاسابيع الكافية لسيرة الماء من جبل الاولياء الى اسوان . وتعرف حاجات البلاد المائية بعد خمسة عشر يوما ايسر كثيرا من

تعرفها بعد ثلاثة أشهر أو أربعة ففرض ضياع الماء في البحر الأبيض المتوسط تكون في هذه الحالة اقل بكثير . وهذه هي الوظيفة الحقيقية الدائمة لخزان جبل الاولياء . هو حوض منظم أكثر منه خزاناً . لكنه سيكون خزاناً الى أن يتم تعديل مجرى النيل في منطقة السدود واقامة الحجز على بحيرة البرت . وطال الحديث بنا في هذه الشؤون لم شكرت المستر تير وخرجت وأصحابنا المهندسين المصريين الى حيث تناولنا طعام الغداء في دار احدهم بجبل الاولياء وتركنا هذه المستعمرة المصرية التي لا تظهر امام العين أكثر من مستعمرة صغيرة تكفى خمسون الفا أو مائة الف من الجنيهات لانشائها والتي يقال مع ذلك انها استغرقت ثمانمائة الف من الجنيهات ، تركناها عائدين الى الخرطوم حيث وصلناها ساعة آذنت الشمس بالغيب .



أويت الى الفندق ورأسي مشغول بمشروعات الرى الكبرى ، هذه المشروعات التي لم تشغل بال المصريين مثلما شغلته منذ سنة ١٩٢٠ حين كانت حركة مصر الاستقلالية على أشدها وحين داخل الناس الروع على مصيرهم اذا ظلت مفاتيح النيل في يد غير يدمصر . فلقد علت الصيحة يومئذ بأن مصر كانت منذ الازل متمتعة وحدها بمياه النيل وبطعميه المخصب ، فمن القبن ومن الاعتداء على الحقوق حجز هذا الماء او بعضه عنها لزراعة القطن او غير القطن في السودان ، ومن القبن وضع تصرف النيل الذي كان دائماً بيد المصريين في ايد أخرى تستطيع ان تتخذ من ذلك وسيلة لتهديد مصر في حياتها وعيشها لسبب ولغير سبب . لكن هذه الصيحة كانت متأخرة من ناحية وكانت متهمه بالفرض الذانى من ناحية أخرى ، وكانت سياسة سيئة كذلك .

ومع ان المصريين جميعاً اشتروا فيها أندفاعاً وراء المهندسين الذين قاموا بها وفى مقدمتهم السمر ويلم ولككس

والمستر كندى الإنكليزيين فأننى أشعر اليوم شعورا عميقا بأنها لم تكن صحيحة موفقة بحال من الأحوال . كانت متاخرة لان مشروعات الرى التى قامت الصحيحة ضدها لم تكن بنت الحرب بل الحرب كانت عطلتها . ولم يبدأ بحثها وتصميمها قبل الحرب مباشرة بل بحثت ووضع تصميمها وقررت المبالغ اللازمة لانشائها قبل الحرب بسنوات . مع ذلك لم يعترض عليها أحد ولم ينكر أحد ما أفادت مصر من انشاء خزان القناطر الخيرية ومن انشاء خزان اصوان وتعليته كما لم ينكر أحد حاجة مصر للماء اذا أريد التوسع فى رى المساحات القابلة للزراعة فيها . فالبلد من حيث هو تقرر قبل الحرب بنحو خمس عشرة سنة . وطريقة التنفيذ وضعت فى سنة ١٩٠٩ وبدأت اعمالها التمهيدية فى سنة ١٩١٢ وكان هؤلاء المهندسون الذين اقاموا الضجة فى مصر بشغلون وظائف هندسية كبيرة ومع ذلك ظلوا جميعا لا يرفع أحد منهم صوتا . وكانت هذه الصحيحة متهمة بالفرض الذاتى لان سير وللكس ومستر كندى لم يعترضوا كما تقدم الا حين نشاط الحركة الاستقلالية المصرية وبعدما استقل السير مردخ سكودونالد بالاشراف فى انكلترا على مشروع الجزيرة من غير ان يشتركا واياه فيه مع ما كان لهما من المقام فى الاعمال الهندسية بمصر والسودان . وكانت الصحيحة سياسة سيئة لانها اتخذت حجة عند السودانين بان المصريين يريدون الاستئثار بخيرات النيل وحدهم مع ما يعلنون من انهم يعتبرون السودان ومصر قطرا واحدا ويفضلون ان تهدر مياه النيل فى البحر الابيض المتوسط على ان ينتفع بها غيرهم ، ولو كان هذا الانتفاع غير ضار بالمصريين انفسهم ، اذا قام المصريون وقام السودانون ببناء القناطر اللازمة التى تحجز الماء للانتفاع به بكل تركه يسيل الى البحر الابيض المتوسط .

أشعر اليوم شعورا عميقا بان هذه الصحيحة لم تكن موفقة صحيح ان اولوية مصر فى الانتفاع ببناء النيل لاولوية تاريخية ناشئة لاسبيل الى اتكاها ، لكنها لا تؤدى الى أكثر من حق مصر فى استيفاء

حاجاتها من ماء النيل قبل غيرها . وما دامت المياه التي تفيض من النيلين الأزرق والأبيض يمكن حجزها والانتفاع بها لتوسع مصر الزراعى ولزراعة السودان والبلاد الواقعة على شواطئ النيل فمن الجريمة فى حق مصر وفى حق هذه البلاد المجاورة لها والمتصلة بها ، وفى حق العالم وفى حق الإنسانية ، أن لاتضبط هذه المياه أدق الضبط وأن لا تستفيد منها مصر والسودان وغير السودان الفائدة التى تجعل أراضيها تنتج أغزر نتيجة ممكنة والتى تفيد الصناعة وغير الصناعة من القوى الكمينة فى اتحاد مياه النيل مما تستطيع الوسائل العلمية استخلاصه منها .

ومياه النيل اذا ضبطت ليست كافية لرى القابل للزراعة من ارض مصر والسودان وغير السودان فحسب ، بل لتجعل من كثير من الاراضى الاخرى الصحراوية واحات وجنات . وما دام العلم قد سخر للناس قوى الطبيعة فمن الجهل ومن السخافة ان لا يستغلوا كل ما يستطيعون استغلاله من هذه القوى

ولست أريد فى سبيل التذليل على هذا أن اضل القارىء فى بيداء الارقام والمكعبات . فلست مهندسا واكثر القراء ليسوا مهندسين . ويكفينى ان اذكر أن حاجات مصر الحالية للماء المخزون تعادل مليارين ونصف مليار من الامتار المكعبة . وحاجة السودان الحالية تعادل ٨٠٠ مليون متر مكعب من الماء المخزون كذلك . اما مياه الفيضان فلاحساب لها لانها أضعا فمضاعفة عن حاجات مصر والسودان أثناء الفيضان . فاذا كان ممكنا أن يحجز فضلا عن ذلك ثلاثة مليارات ونصفا فى بحيرة تساقا ومليارين ونصفا عند جبل الاولياء (أو عند أسوان اذا أمكنت عملية الخزان وملؤه) وأربعة وعشرين مليارا فى بحيرة البرت امكن القارىء أن يتصور ما يمكن زيادته من المساحات المنزوعة فى مصر والسودان . وعند ذلك يشعر معنا بعدم توفيق تلك الصيحة التى اندفع الناس لها وراء انتقادات السير ولككس ومستر كندى والتى كانت ترمى الى غرض آخر

صحيح ان تفاصيل الانتفاع بهذه المياه وكفالة ما لمصر في ذلك من اولوية يحتاج الى دقة فنية كبيرة . وان من حق المصريين المعترف لهم بهذه الاولوية ان يراقبوا تصرف مياه النيل منذ صدورهما من منابعه . وقد كان ذلك متبعاً الى آخر الحرب بسبب مطالبة المصريين بحقوقهم الطبيعي في الاستقلال وحرصهم على وحدة مصر والسودان في هذا المطلب ادت مع الاسف الى منازعة انكلترا مصر هذه المراقبة المترتبة حتماً على اولويتها في الانتفاع بمياه النيل . وبلغ النزاع أشده على اثر مقتل السير لى ستاك باشا حاكم السودان العام بالقاهرة . فقد ذهبت انكلترا في انذارها الذي وجهته للحكومة المصرية بتساريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ على اثر هذا الحادث الى انكار اولوية مصر التاريخية والى ان ايدت حكومة السودان في اباحة زراعة ماتريد زراعته في سهل الجزيرة من غير حاجة الى ان يتم بين هذه الحكومة وحكومة مصر اتفاق سابق على هذه الزيادة . ومن غير تقدير لما يترتب على هذه الزيادة من الضرر باولوية مصر التاريخية في الانتفاع بماء النهر . فلما هدأت الاحوال نوعاً وآن للتفكير السليم ان يحل محل العجلة التي اندفعت اليها انكلترا في تقرير سياستها بمصر على اثر ذلك الحادث عدلت عن هذه الفقرة من انذارها ، وقررت اولوية مصر في الارتفاق على مياه النيل في وثيقة رسمية ، واتفقت على ان تحدد لجنة المساحة التي يمكن زيادتها على الثلاثمائة الف فدان المنزرعة قطناً وان تبحث كذلك مبلغ حاجات مصر لمياه النيل الازرق ومتى يجب ان يكون تصرف هذا النهر كله وفقاً على مصر فلا يكون للجزيرة الاماحجز من الماء في خزان سنار

وقد قامت هذه اللجنة بالمباحث التي كلفت القيام بها . والمفهوم ان الاتفاق تم على ان تزداد مساحة مشروع الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الف فدان بدل ثلاثمائة الف . والحجة في ذلك ان خزان سنار يكفي متى ملئ الى نصف مليون من الافسدة

وان ملاء لا يضر بحاجات مصر للماء ، فلا ضرر من زيادة المساحة خمسين الف فدان اخرى . والمفهوم كذلك انه قد تقرر ان بدء حاجات مصر لتصرف النيل الازرق كله يقع في اول يناير في السنين العادية وفي ١٨ ديسمبر في السنين الواطئة الفيضان . وعلى ذلك يجب البدء بتفريع خزان سنار في هذه التواريخ بدلا من ١٨ يناير وهو التاريخ الذي اشار اليه الفى بك في المذكرة التى ابنتنا صورتها الفصل السابق

وقد اعترف لمصر فى هذا التقرير بحققها فى مراقبة تصرف النهر كما اعترف لها بمراقبة تصرف خزان سنار . لكن تفاصيل الوسائل التى تتم بها هذه المراقبة لم تعرف بعد . وهى لا تعنى فيما اعتقد غير المهندسين

والمفهوم ان هذا التقرير وضع المبادئ المشار اليها بصفة مؤقتة يعاد النظر فيها عند تمام انشاء خزان جبل الاولياء وضبط المياه التى تستطيع مصر ان تستفيدا منه . ذلك بان انشاء خزان جبل الاولياء كان امرا مقررا يوم وضع هذا التقرير ولم يكن يدور فى حساب احد ان توقف الاعمال فيه لاعادة النظر فى صلاحه ام فى افضلية تعلية بناء خزان اسوان على انشائه . لكن الحكومة التى عقت حكومة زيور باشا (وهى حكومة عدلى باشا ووزير الاشغال فيها عثمان بك محرم) قررت وقف العمل فى جبل الاولياء وانتداب لجنة دولية للبت اى الاثنين افضل : انشاء الخزان المذكور ام تعلية خزان اسوان . والى ساعة كتابة هذه السطور ايضا لم تحضر اللجنة الدولية التى قررت الحكومة انتدابها منذ ستة شهور ، بل لم تدع هذه اللجنة للحضور ، بل لم تجمع المعلومات والبيانات التى تمكن اللجنة من الفصل فيما يراود منها ان تفصل فيه

ولست فنيا فى شئون الهندسة والرى لا قطع فى الامر برأى . وهذا الموضوع لا يدخل فى نطاق كتاب وضع عن عشرة ايام قضيتها فى السودان . لكن ما اخذت به نفسى فى مقدمة الكتاب من ان

أوجه خطا كبيرا من همى ومن عنايتى الى هذه المسألة الخطيرة
التي لم تنج في مصر كما لم تنج في السودان من شوائب الشهوات
السياسية ، والتي كانت سببا لنشر دعوة تثير بين المصريين
والسودانيين العداوة والبغضاء جعلنى أخشى أن يكون الخلاف
في مسألة اسوان وجبل الاولياء مشوبا بهذه الشهوات السياسية
بيننا كان واجبا ان يظل في دائرة البحث الفنى الصرف وان يترتب
عليه ما يترتب على الصيحة العلىة التي قامت في سنة ١٩٢٠ بزعامة
السردليم وللكس والمستركندى والتي اتهمت بما اتهمت به

والراى عندى ان مشروعات الرى التي تقام على نهر محسن
كبير كالنيل ليست معاقل سياسة يرجى من ورائها اخضاع شعب
من الشعوب ولكنها تحوير في الطبيعة يتمه العلم لفائدة الانسانية
وليست مصر وليست السودان وحدهما هما اللتان تستفيدان
من هذه المشروعات ، بل تستفيد منها الانسانية جمعاء فائدة
عظيمة . وما دام صحيحا ، اقتصاديا ، ان كل زيادة في الانتاج
الزراعى او المعدنى او الصناعى تحدث في ناحية من الارض تفيد
الانسانية جمعاء فمن الجريمة ان تستغل اسباب هذه الزيادة
لشهوة سياسية وسيان كانت هذه الشهوات في امر مشروعات
الرى على النيل ناجمة عن مطامع ائكلترا او من مخاوف مصر .
وامام المصريين مثل في قننة السويس وموعظة . لقد حورت
هذه القننة الطبيعة لصالح تجارة العالم كافة فزادت بذلك رخاء
الناس طرا . وبالرغم مما اثرته من الشهوات والمطامع السياسية
التي اضرت بمصر فقد افادت مصر من القننة فائدة مادية وفائدة
معنوية كبرى . واذا كانت لم تفذل ما كانت تستطيع افادته فليس
الذنب في ذلك على هذا التحوير الضالغ للطبيعة . بل الذنب على
الظروف الخاصة التي احاطت بالاجيال الحاضرة والتي نهبتها
لتمهيد السبيل لسعادة الاجيال المستقبلية

ومشروعات الري الكبرى تحويل للطبيعة من هذا النوع .
فالتبيعة تجعل مياه النيل تنحدر بها الامطار في فصل معين
من السنة فتنسب في مجراها لتضيق في البحر الابيض المتوسط
واذا امكن ضبطها للاستعانة بها في فصول السنة المختلفة . كان
ذلك خيرا لمصر وللأسودان وللناس جميعا في افطار
الارض المختلفة . وقد عولج ضبط هذه المياه منذ قدماء المصريين
وعولج في القرن الاخير بنجاح ، فمن الجريمة عدم ضبطها اليوم
ولدينا من وسائل العلم ما يمكننا من ذلك

واذا كان واجبا ان يعلن امثالي من غير المهندسين هذا الرأي بمثل
هذه الصراحة فواجب المهندسين الذين يحترمون انفسهم ويريدون
ان يسفروا علمهم لمنفعة وطنهم وخاصمة الانسانية ان يعلنوا
آراءهم الفنية في هذا الموضوع وفي كل موضوع يعتقدون صلاحه
وفائده . وليس يجدر بهم بحال من الاحوال ان يخلطوا اعتبارات
السياسة باعتبارات الفن . فاعتبارات السياسة وقتية
واعتبارات الفن دائمة . والسياسة ظروف تنتهز ولكن العلم والفن
مبادئ وقواعد تقدر . وقد يبدو لك امر من الامور السياسية
اليوم في لون فاذا هو بعد زمن قصير في لون آخر . وقد تحسبك
مستطيعا ان تحكم تصريفه سياسيا فاذا تقديرك انقلب عليك
غدا فاضطرت الى البحث عن تصريف لذلك الامر جديد . ومثل
هذه الشئون الدائمة المور مع الحياة لا يصح لعالم يبحث مسألة
من المسائل المتعلقة بها علمه ان يدخلها في حسابه . انما عليه ان
يقول في طمانينة ضمير وطهارة ذمة ما يعتقد حقا عليه لعلمه
وحده ان يقوله . ويجب عليه لذلك ان ينسى ساعة ابدائه الرأي
انه امة ضعيفة وان ينظر في الامر لذاته لا للظرف السياسي المؤقت
المحيط به

ولعل هذه النظرة العالية المتجردة عن العاطفة السياسية

أهون على المصريين في مشروعات الرى الكبرى منها فى أية مشروعات أخرى . فالسودان ومصر وطن واحد فى الحقيقة . وأهل اصوان اقرب الى حلفا منهم الى القاهرة . والروابط التى تربط مصر والسودان كثيرة وثيقة ان ضعفعتها أحداث السياسة يوما فلن تفضيها . ثم هى لن تضعفها الا الى اجل . وذلك الاعتار اصح اليوم منه فى كل يوم مضى . فالامم فى الغرب والشرق تتقرب بعضهما من البعض الآخر ولو كانت بينها فواصل طبيعية وليس بينها من الصلة ما بين مصر والسودان . وكلما ازدادت وسائل المواصلات تهدمت الحدود الصناعية بل الحدود الطبيعية . واذا كانت الامم تسعى اليوم للقضاء على الحواجز الجمركية التى أدت كثرتها الى ما يعان به العالم منذ الحرب الكبرى من أزمات اقتصادية فمعنى ذلك أن ما أقيم فى الماضى من الحواجز الصناعية سيتهدم بطبعه

ولسنا الآن بمعرض بحث هذه العلاقة بين مصر والسودان فسنفرد لها الفصل الاخير من هذا الكتاب . لكننا نورد ماوردنا لنقول أنه اذا وجب على رجال العلم ان يطرحوا جانباً اعتبارات السياسة فى أبحاثهم فذلك اوجب فى بحث مشروعات الرى الكبرى بين مصر والسودان

عشية الأوبية يوم بحلفا وبشلال حلفا

عدت من حبل الاولياء مساء وقد اعتزمت السفر بالقطار الخاص الذى يبرح الخرطوم صباح الغد قاسا . حلفا . ودار . فى نيتى ان اتناول طعام العشاء ثم احزم متاعى وآوى الى مضجعى لاستريح من عناء هذه الايام التى قضيناها بالسودان فى مثل نظام الجند حلا وترحالا . لكن عزمى لم يتحقق اذ الفيت جماعة من اصحابنا الذين دعونا الى الشئ بالمكتبة القبطية امس فى بهو الفندق ومعهم بعض اخواننا المصريين الذين جعلوا من مقامنا بالخرطوم مقاما بين اهل واصدقاء فامضينا شطرا من الليل تناول حديثنا فيه شئ من شئون السودانيين والمجهودات التى تقوم بها حكومة السودان فى سبيل تعميره ليكون مزرعة من ابدع مزارع القطن فى العالم . واهل السودان قسما : عرب وزنوج فاما العرب فيمتازون بدقة فى قسعات الوجه وبرقة الشفاه وارتفاع قصب الانف . وهم ينقسمون افخاذا وعشائر كشعوب شبه الجزيرة . اما الزنوج ففطس الانوف غلاظ الشفاه غائرو الاعين . وهم يقيمون اغلب الامر فى داخلية السودان تحت امرة سلطان منهم ماتزال نفسيته نفسيتهم وروحه روحهم . وبرغم امتداد الحضارة الى الخرطوم والى ام درمان عن طريق اهل الجنسيات المختلفة الذين يقيمون بهما وعن طريق المصريين بنوع خاص اذ يمتنون الى العرب السودانيين بكثير من الصلات بينها الدين واللغة والمصاهرة والعادات ، فان داخلية السودان

ما تزال في شبه الحياة البدائية التي يقصون مثل قصصها عن عاشوا في مجاهل الارض منذ آلاف السنين . قص احد الذين حضروا معنا في هذه الامسية انه كان مسافرا الى رجاف في المنطقة الاستوائية ، فمر بأحد السلاطين الزنوج وطلب ان يحظى بالثول في حضرة عظمته وظهر من وراء السلطان مائتان ، معلمة رماحهم ، وكلهم في خدمته ، فلما حظى محدثنا بحضرة السلطان قدم الى عظمته من الهدايا بعض المرايا وبعض الورق المفضض الذي تلف به قطع الحلوى ، فكان اغتباط عظمته بهذه الهدايا عظيما ولعله امر لمن قدمها بشيء كثير من العاج ومن ريش النعام .

وقص محدثون اخرون شيئا من مثل هذا القمص فاذكرني ذلك جان جاك روسو ورجل الطبيعة الذي صوره في كثير من كتبه والذي جعله المثل الاعلى للسعادة وودد معه ان تعود الانسانية الى احتذاء امثاله . وابتسمت لهذه الذكرى وتساءلت لو كان يرضى روسو بمثل عيش هذا السلطان وجنوده . ثم سرعان ما زالت ابتسامتي حين سمعت المحدثين يذكرون من شهامة هؤلاء الزنوج وبسالتهم واحتقارهم الحياة واقدامهم على الموت طائعين . زالت ابتسامتي وتخيلت روسو منتصرا يقول : « ارايت يا صاح انهم سعداء لان مطامع الحياة وشهواتها لم تكتسح من نفوسهم اسباب العظمة الحقبة التي تصل الانسان بالطبيعة وتجعله جزءا منها سعيدا بها مطمئنا اليها . وهم سعداء لان العلوم والفنون لم تخدمهم بباطل زخرفها ولم تزين لهم من الوان اللهو متاع الغرور ، ثم هم سعداء لانهم يعيشون عيش البساطة فكل ما ينالونه من خير يزيدهم سعادة . فلم لاتعيش الانسانية عيشهم فتزج وراءها هذا الزخرف الباطل الذي نسجه الحقائق والعلوم والفنون والذي لا يزيد على انه عبث الذهن ولهو الخيال ؟ »

وامسكت عن الاندفاع في هذا التفكير حين اضطررت لمشاركة اخواننا لما تحدثوا عن مصروا حوالها وسالوني عما اعتقده مصر ما تم بين احزابها من ائتلاف . والحديث في السياسة كحديث الافاعي

يطول . فاستغرق كلام اخواننا في مصر وشؤونها بقية سهرتنا .
ثم ودعوني واعتذر جماعة منهم بعملهم عن توديعي ساعة الرحيل
من الخرطوم

وتنفس صباح الاحد ٢٤ يناير واعتلت شمس سماء السودان
الصافية الاديم وتناولت الشاي واعدت متاعى وذهبت الى قاعة
الطعام للافطار ثم خرجت من بهو الفندق الى حديقته الصغرى التي
تفصل بين سجاج الفندق وبنائه . والقيت عند الباب سيارة كبيرة
وسيارات صغيرة بعثت بها حكومة السودان لتقلنا جماعة
ضيوفها الى المحطة في طريق عودتنا الى مصر . وتخطيت الشارع
والقيت نظرة على صفحة النيل الازرق وتلفت حولى اودع هذا
المنظر الذى الفتته والغنى اسبوعا كاملا . فى هاته اللحظة دب الى
نفسى احساس يخالجهما كلما فارقت بلدا احتوانى وانا فى شك
من العودة اليه . واحساس الفراق يمتزج فيه الالم بالامل ، والخوف
بالرجاء . وهل الفراق الا بعض صور الفناء والعدم والموت ! هل
هو الا انهيار ما نفارق فى لجة مالا نرى وما لانحس الا خيالا
وحدسا . فى هذه اللجة الفسيحة الممتدة الى اللانهاية والمحجوبة عنا
بآفاق قريبة لاتزيد على مدى ما تصل اليه حواسنا . وهو
انهيار مخوف فى لجة الزمن الذى لا يذر العالم لحظة من غير مور
ولا تجدد . ومن يدري ما تكون الخرطوم وام درمان والسودان
ان قدر لى ان اعود اليه بعد سنوات ؟! هل اجد هذه الاشياء
التي الفت والتي اصبحت جزءا من حياتى كلما خلفتها ؟ ام ارى
مكانها شيئا جديدا اسدل عليها ستار الفناء وقام مقامها ! والحق
هندي ان كل مانرى وكل مانحس وكل عاطفة تهز فؤادنا وكل فكرة
تجول بخواطرنا هي بعض حياتنا القصيرة التي تنقضى بعد ان
تصبح هي الاخرى بعض حياة الوجود الازلى الابدى .
ولئن كان كل ما يصيب المادة يترك فيها اثرا لا يزول -
على حد قول هيربرت سبنسر- فما اشك انا فى ان كل ما يصيب
حياة الوجود يترك فيها اثرا لا يزول

دب الى نفسى الاحساس بالفراق حين رأيت السيارة الكبيرة التى اعدت لنقل المتاع والسيارات الاخرى التى اعدت ليستقلها المسافرون . ومن شأن الظروف التى تحيط بنا ساعة الفراق ان تجعل هذا الاحساس مبهما . فنحن ساعتئذ فى شغل بمتاعنا وبالمسافرين معنا وبما ينتظروننا فى سفرنا . وكنا جماعة المسافرين من الخرطوم اشدهم توجسا . فهذا يبحث عن بعض ريش النعام يهديه لصدقه فى مصر او فى غير مصر . وهذا قد نسي بعض ما ابتاع أمس فى مخزن مقفل اليوم - يوم الاحد - ويريد ان يدبر الوسيلة للحصول على ما ابتاع . وهذا ثقل متاعه فما يدري كيف يحزمه . ورجال البوليس وسائقو السيارات يستعجلون المسافرين لينتهى واجبهم . واخيرا سارت السيارات تخرق بنا طرق الخرطوم فازدادت نفوسنا احساسا بمعنى الفراق . ثم انطلق القطار فى منتصف الساعة التاسعة يقطع الطريق التى قطعناها آتينا من حلفا حتى يبلغ عطمور أبى حمد بعد ما ارحى الليل سدوله . وبلغنا حلفا فى منتصف الساعة العاشرة من صباح الفد . ونقل متاعنا من القطار الى الباخرة بريتايا التى كان مقررا ان تسافر فى اوليات المساء . فلم يك بد من ان نمضى النهار بحلفا .

حلفا بلد صغير اشبه بينادر المراكز فى مصر فليس فيه ما يستوقف النظر ، وحكومة السودان جد حريصة على ان لا يشعر ضيوفها بشئ من الملل . لذلك نظمت لهم سياحة صغيرة فى الصباح الى معسكر حلفا كما نظمت لهم نزهة بعد تناول طعام الغداء على ظهر الباخرة يزورون فيها شلال حلفا ويشهدون منه منظرا من اعجب مناظر الطبيعة واكثرها جلالا وروبة .

ومعسكر حلفا ، والى جانبه بيت كتشنر ، يقع على نحو ثلاثة كيلو مترات من محطة وادى حلفا . لذلك ركبنا اليه قطارا سار بنا حتى كنا جذاذه . وقد ركب معنا هذا القطار جماعة من الامريكيين لم يكونوا بالخرطوم ولكنهم جاءوا الى حلفا للنزهة

بعد ان قضوا في فندق الشلال باسوان زمنا غير قليل استحبوا معه تغيير منظر اسوان . والامريكيون شعب جديد حقا . فالامريكي لا يشعر بانه مقيد بما يشعر اهل العالم القديم بانهم مقيدون به من عادات ومن قواعد للسلوك في حركاتهم وفي ثيابهم وفي ملابسهم . ولقد لفتنا منظر شاب يسير في سراويل بيضاء وينتعل حذاء ثقيل غابة الثقل ويرتدى فوق اكتافه جاكسة وصدرية عجيب شكلهما . ولم يكن الانكليز ممن معاقل منا دهشة لهذا المنظر ، وكان هذا الشاب يسير مع سيدة نصف ورجل متقدم الى الكهولة ، عرفت فيما بعد انها ابودا ، وان هذا الكهل استاذ باحدى الجامعات الامريكية . واتصل بينى وبين هذه الاسرة حديث طويل ابدى الشاب خلاله من العجب للانكليز والاوربيين ومحافظتهم مثل ما ابدوا من العجب لاستخفافه بالتقاليد . ومع هذا النقد المتبادل وصل السفر بين الجميع فجعل كل يقضى الى اصحابه بما راى وكيف تأثر به .

معسكر حلقا قضاء واسع من ارمال لم يبق من آثاره الا قوس فخم لمحناه ساعة نزلنا من القطار ، وكان هذا الفضاء مضرب خيام فرق الجيش المصرى التى جاءت مع مصطفى فهمى ومع كتشنر من بعده لفتح السودان . على انالم نقصد ابدى الامر الى القوس ولا الى الفضاء الذى اصبح صامتا وكان من قبل معسكرا لرجال الحرب وعدته ، بل ذهبنا الى دار قيل انها محافظة او ما يشبه المحافظة كل ابوابها موصدة وليس في عمارتها ما يلفت النظر . وانتقلنا من هذه الدار الى دار اخرى كانت منزلا لكتشنر شعرنا اول ما دخلناها بابتهاج اثاره في نفوسنا ذلك الزرع الناضر والحضرة الباسمة القائمة امام المنزل والممتدة الى شاطئ النيل . ولقد استوقفنا هذا المنظر الناعم وسط جفاف الصحراء حوله ، واخذ بمجامع انفؤاد انفساح النهر وقيام كلبان الرمل وراءه متموجة بين سمود وهبوط كأنها بعض موجه جين الفيضان . وكان للشمس فوق هذا المنظر وفي ذلك اليوم

من أيام الشتاء سنا يأخذ بالابصار ثم ادركنا عيوننا الى ناحية هذا المنزل الذى شهد من تدابير الحرب والسفك ما شهد والذى اصبح اليوم صامتا صمت مصطفى فهمى وكتشتر فى حجب الغيب وان كان على خلافهما ما يزال معرضا لعبث الحياة ولتدبير الحرب والسفك : ثلاث غرف قيمتها ما تكنه من الذكرى لاجمال فيها الا جمال ما شهدته من بطولة واقدام . الم يكن الذين اقاموا فيها قواد الجيش المصرى الباسل الذى نفذ الخطط التى وضعت بشجاعة وجراة سجلا له على التاريخ فخرا خالدا ! وعلى ظاهر جدران احدى الغرف نقش تذكارى للذين اقاموا فيها واحتملوا مع الجند ما احتملوا من مضض وتضحية . والى جانب اللوحة زير قديم من الفخار لعلة فى هشاشة بنائه اصلب على الحياة من اولئك الذين شربوا من مياهه ولم يبق لهم اليوم على الحياة غير الذكر ، والزير لا يزال باقيا تمجده الانتظار ويود اصحابها شربة من مياهه . وتعلقت الابصار بهذه الآثار وجاهد كل مصور يريد ان يأخذ منها رسما يرغم معاكسة الشمس له . على ان الابصار لم تكن بالحديقة وبالنهر ويكثبان الرمل على شاطئه الثانى اقل ولعا . فكانت ما تكاد تستقر على البناء برهة حتى تعود لتجتلى من هذا المنظر البديع المتجدد على الزمان ما تجدد الزمان جماله الساحر وسحره الفتان .

وخرجنا الى فضاء المعسكر القديم والى القوس الباقى من آثاره . وذهب البعض بخيالهم الى ذلك التاريخ الغريب حين كانت الجنود الذاهبه من حلفا الى الخرطوم تقف فى هذا المعسكر الى ان تتلقى الاوامر بالاندفاع فى تيه الخطوط لانشاء سكة الحديد او لسحب السفن بين احجار الشلال . وبقي اخرون سعاداء بالجو الجميل حولهم وبالصور التى كان يأخذها المصورون لجماعتهم . وكان وقت الظهيرة قد اقترب فعدنا ادراجنا الى القطار الذى عاد بنا الى محطة حلفا حيث نزلنا عائدين الى برتانيا .

ونلنا من الراحة مانلنا ثم انتقلنا بعد تناول طعام الغداء سفينة أخرى سارت بنا جنوبا نحو ساعة . فلما بعدنا عن حلفا ببضعة كيلو مترات تبدت امامنا قممات الشلال ، فانشرت في لجة النهر اكام صخرية من الجرانيت الاسود كانت مبعثرة بادي الامر فللما من حلالها فرضات ينفذ منها . لكنها كانت يقترب بعضها من بعض كلما اقتربنا نحن منها حتى تلاحت او كادت وحتى لم يبق للما امام العين الا مسارب تقف عند نتوء صخري قريب . وملاات اكام الجرانيت مابين الشاطئين وترامت الى مرمى النظر . والى غاية الافق متموجة في لونها الداكن كأنها ظهور قطيع ضخم من الغيلة ماتكاد تتحرك او تتلوى الا بمقدار عبت الضوء بها واتسكاسه عنها . وامتدت بين هذا القطيع من الجرانيت ابصارا لتلمس التماسيح التي خرجت الى رمال الشاطئ ، تنال دفء شمس الشتاء المحسنة قال الامريكي ذو السراويل البيضاء :

- لقد جئنا امس الى هنا ورأينا من التماسيح قطيعا كبيرا تمدد كل واحد من افراده على الرمل وفغروا الى الشمس يستشفى باشعتها من علل الشتاء

ونزلنا من السفين الكبير الذي اقلنا من حلفا الى زورقنا وتوموبيل ليتسرب بنا في تعاريج انقنوات التي بين الصخوره والتي لا تتسع لزورق اكبر منه ، كي نصل الى قمة عالية هناك يحيط الناظر منها بالشلال كله . وفي لجة نور الشمس الساطعة سرى بنا الزورق وكنا في لجة ليل بهيم فانت بين اكمتين سوداوين وامامك على امتار اكمة سوداء ثالثة تكاد تتصل بهما وتقطع الطريق او يرتطم السراويل . وتلتمس مسارب الماء بين ماتمر به من اكام الجرانيت فيرند بصرك ولم يفدك شيئا . ثم اذا الزورق انحرف فجأة ليحاذي الاكمة القاطعة عليه طريقه فما يكاد يحاذيها حتى تنجم أمامه اكمة جديدة يتلوى من حولها كتلوى الثعبان في مسارب الارض . ولم تبض دقائق فاذا بنا في غابة



وكان اغتباط السلطان بالكرايا والورق عظيما

كثيفة من صخر رهيب مخوف . لكن روح الجماعة في طبعها المرح مالم يلجمها الوجع او يستثيرها الغضب . لذلك ظل اصحابنا تلمس أعينهم التماسيح التي قص عليهم الشاب الامريكي أمرها . فاذا خدع احدهم بصره وخيل اليه انه رأى تمساحا لم تبين ان لا تمساح الا في خياله نبودلت النكات من جوانب الزورق عن ضخامة الحيوان الموهوم وعن ذنبه الذي كاد يلقى بنا في النهر وعن فكه المرتفع ليلتلعنا ، ولم يكن مخدوع البصر اقل نصيبا في النكات من غيره . ومانا لانمرح ومعنا الدليل الذي قص علينا انه يتسرب بقاربه في هذه اللجنة عشرات المرات في كل شهر ومعنا التوبيون من اهل هذه النواحي يفخرون بانهم يعرفون مسارب الشلال اكثر من معرفتهم ازقة قراهم . ثم ما لنا لا نجد في هذا المنظر الرهيب موضعا لمسة وبيننا سيدات وفتيات في شبابهن المتورد الوجنت ما يضيء الحلك ويبدد الظلم وهن برهة هذا المنظر معجبات بل معنونات

وطال بنا تسرب الزورق والمويه من غير ان نحظى بتمساح واحد من سرب صاحبنا الامريكي حتى انتهينا الى الشاطئ عند اسفل القمة العالية . واسرعنا جميعا لسلقها ، وما كدنا نبلغ منتصفها حتى شعر كثيرون بالتعب . فالقمة رملية تغوص فيها الاقدام غوصا وتحتاج من اجل ذلك الى مجهودين : تخليص القدم من الرمل ، ثم التسلق للفصوص به في الرمل من جديد . لكن الشباب لا يعرف المشقة ولا يعجزه التعب . والطفولة لا تشعر بتعب ولا بمشقة لذلك اسرع الاولاد والبنات واسرع الشباب والشابات الى راس القبة . وفي النفس الانسانية وان شق عليها الجهد غريزة المنافسة وحب الفوز . وكم كان عجا منظر شيوخ وعجائز هدهم التعب واضناهم الكلال ثم لا يريدون ان ينظر اليهم الجيل الذي بعدهم وكانهم اضعف منه حولا او اقل حيلة . انظر الى هذه المعجوز البادنة المترهلة البيضاء الشعر كيف تلهث الكنها مع ذلك تستعين بنسوبي

يصل بها غاية القمة لتكون مع ابنائها وحفدتها بما يخیل اليها
أنها تملك الحياة ملكهم وتستمع بها استماعهم . وهى كلما
غاصت قدمها وغاص معها قلبها وقفت زمنا تسترد قلبها أولا
وتنتشل قدمها بعد ذلك . وما كنت وما كان غيرى ، ونحن نطل
عليها من أعلى القمة ، نحسب أنها بالغة ما تحتمل كل هذا الجهد فى
سبيل بلوغه ، لكن الإرادة القوية غالبية أبدا . وبارادتها تغلبت هذه
السيدة على الهرم وضعفه ووقفت معنا فى أعلى القمة تمتع طرفها
بالمناظر الرهيب العجيب

ما كان أصغر هذه القمة حين كنا بعيدين عنها ننظر اليها من
فوق السفين الذى جاء بناحتى أبواب الشلال ، وما أصغرنا نحن
الآن فوقها ! وقف هذا الجمع الحافل الحاشد من أشتات
جوانب الأرض فى مصر وآنكلترا وأمريكا وإيطاليا وغيرها ، حول
بضعة أحجار منثورة فوق رمال هذه الاكمة ، فإذا هو من قلة
الكم بما لا تلمحه عين من ظلوا فوق السفين . لكنه مع قلة كمه
صلة ما بين هذه الاقطار الشاسعة التى يتكون العالم منها ، وهو
لذلك روح هذا العالم الذى نعيش فيه . فعنه يستمد العالم
ادق ما فى حياته وحركته ، وهولذلك صغير عظيم ، لكن عظمته
ليست فى أفراد بل هى فى الروح الانسانية الخالدة التى تعظم على
الزمان كل يوم بما تترك على الزمان من سلطان والتى تزداد
عظمة بما تشتمله من الوجود فى سلطانها وبما تذيبه فى الوجود
من نفسها .

وإذا كنا صفارا فوق الاكمة فماذا نكون فيما حولنا والاکمة
ليست منه شيئا مذكورا . مددنا الطرف نريد أن نتجلى غاية الشلال
وأحجاره فارتد دون هذه الغاية وقد ملأته الاكام الحجرية النابتة
فى الماء رهبة ، وأجلناه فيما حولنا من كتبان الرمل المهيمنة
فأخذته وأياها الى الأفق فى موج للاء تحت أشعة الشمس
المنحدرة الى المغرب ، وتخطبنا به النهر فإذا بعض اشجار تحيى
فى هذا المحيط العاسى جسدة الابتسام ، ثم ثبتت زمنا فوق
أكامات الجرانيت النابتة فى الماء تحيط بها قنواته الضيقة فما
يكاد بعضها يتسع لمثل القارب الذى تسرب بنا خلال الشلال
الى حيث ارتقىنا القمة التى نطل الآن من فوقها . وبدأت على

الوجوه علائم الدهشة والاكبار لهذا المنظر العجيب ، فساد الصمت جمعنا حينا . ثم بدا الجمع يتدرك القعة عائدا الى القارب . يا عجباً ! ما اكثر ما يتغير منظر هذا السرب من الفيلة الجائمة في الماء ، فكلما تدرك الهابط سفح القعة بدت تحت ضياء جديد فاخذت صورة غير صورتها ؛ فبعض يزداد من بعض اقترابا وبعض يزداد عن بعض بعدا ، وكذلك تتغير المحسوسات بتغير موقفنا منها ، فعاذا يكون شان ما نسميه الحقائق في هذه النظريات من تصورات الذهن وابنية الخيال ؛ وجلست اثناء هبوطى على حجر جائم فوق الرمل وتلفت حولى فلم ار احدا بالقرب منى اذ كان كثيرون ما يزالون باعلى القعة وكثيرون غيرهم وصلوا القارب . وجعلت اناجى نفسى : ماذا تكون من هذا الوجود العظيم ! وما جابتنا النائرة القصيرة الى جانب هذا الخلد الساجى تبدو حكمته في سكينه ما حولنا وطعائنته . واتى لى نجواى اذ مرت العجوز البادنة معتمدة على نوبيين وهى تلهث في نزولها كما كانت تلهث في صعودها . لكن ابتسامه على ثغرها كانت تعبر عما يدور في خاطرها من عظيم القبطه لاتتصارها على ضعف الشيخوخة واقناعها بذلك نفسها انها ما تزال قديرة على حمل عبء الحياة الثقيل اللذيد وعدنا الى زورقنا فعاد يسرب بنابين صخور الشلال حتى السفينة التى ظلت في انتظارنا . وعلونا سطحها والشمس تناهب للمغيب ثم انتقلنا منها الى بريتانيا التى سارت بنا قبيل العشاء .

وفي الايام التى قضيناها بها حتى اسوان عادت الى خاطرى صورة الشلال وصورتنا فوق الرية نجاهد ، عبثا ، لنحيط بكل حدوده رغم ما نزع من الاحاطة حتى بحدود المجهول . لكن هذا العجز الذى يمسكنا ونحن وقوف يزول اذا تحركنا فاخترنا فى خيالنا صور الشلال وغير الشلال جزءا بعد جزء . وهذه الخبالات المختزنة هى قوتنا وذخرا فى الحياة وهى الميراث الذى تتعاقبه الاجيال فيزيد الانسانية سلة بالوجود وسلطانا عليه .

وylvania اسوان صبح لاربعة وylvania القاهرة صبح الخميس ، فعندنا يهزنا برد الشتاء بعد عشرة ايام قضيناها فى ربوع لا تعرف الشتاء .

مصر والسودان

لا أستطيع ان أختتم هذا الكتاب من غير ان اتناول علاقات مصر والسودان بكلمة . وليست غاييتي من التكلم عن هذه العلاقات غاية سياسية . فلعل القاريء قد أدرك من خلال الفصول السابقة اني لم أثائر في أية مسألة من المسائل التي عرضت لها بأهواء السياسة أيا كانت . وانما توخيت ما يمليه العدل وما تقضى به المصلحة الانسانية العليا الى لا تقف عند حدود مصر والسودان بل تتجاوزها لما يمكن ان يستفيد العالم كله مما في هذه البلاد من خيرات . وانما غاييتي ان ابين ان خير السودان وخير مصر وخير هذه المصلحة الانسانية العليا التي تستفيد منها انكثرا قبل ان تستفيد منها أية أمة أخرى انما يتحقق على وجه اكمل كلما ازدادت مصر والسودان ارتباطا سواء من الجهة الاجتماعية او الجهة الاقتصادية او الجهة السياسية وكلما تعاونوا من طريق هذه الرابطة الوثيقة في سبيل ترقية مصادر الانماج المادية والمعنوية فيهما .

ولست أريد من اجل هذا البيان ان ادلل على ان مصر والسودان مرتبطان تاريخيا بروابط قديمة تجعل من حق مصر ان تطالب بالسودان كما كانت فرنسا تطالب بالآزاس والورين . ولست أريد كذلك ان أقيم الحجة على ما أنفقته مصر في السودان من مهج وأموال أو ان أرجع الى التاريخ لاي سبب من الاسباب ، فالتدليل التاريخي في مسألة كعلاقة مصر بالسودان أشبه الاشياء بالمرافعات التي تحتاج الى قاض للفصل فيها والقاضي في العلاقات التي تربط

الدول بعضها ببعض هي المصلحة الحاضرة التي يراها أبناء هذا الجيل من غير حاجة للرجوع الى اسانيد التاريخ ووثائقه ومن نافلة القول ذكر الرابطة الطبيعية بين مصر والسودان وما توجبه هذه الرابطة من ضرورة توثيق الصلات بين هذين الجزأين من أجزاء وادى النيل ، وحاجة مصر الى توثيق هذه الصلات وتوكيد تلك الروابط أوضح ، فليس كمصر بلاد معلقة حباتها بنهر واحد ، وليس يصدق على بلاد ما يصدق على مصر من أنها هبة للنيل ، ولولا النيل لكانت مصر بعض الصحراء الافريقية الكبرى ولوصلت هذه الصحراء ما بين المحيط الاطلانتيقى والبحر الاحمر ، لذلك كان هم المصريين فى كل الازمان بل كانت حياتهم معلقة على هذا النهر ، فكل ما تأثر به مياحه من ظروف الطبيعة او من عمل الانسان تأثر به مصر ، وما نظن التاريخ يذكر أن المصريين ابتهلوا الى الله فى ضراعة وخضوع كابتهالهم اليه ليتم على النيل فيضانه ، ولا نظن المصريين فكروا فى امر من أمور حياتهم تفكيرهم فى هذا الماء المخصب المحسن الذى يجىء اليهم من طريق السودان يحمله المجرى العظيم بين جروفه

فاذا كان أكبر هم المصريين يمتجها الى الجنوب وكان اكثر تفكيرهم فى الصلات التى تربطهم بجاراتهم النيلية وفى توكيد هذه الصلات وتوثيقها فليس ذلك منهم جبا فى الفتش او اندفاعا وراء شهوة الاستعماز التى يجرى وراءها كثير من الامم بل هو الحرص الطبيعى على الحياة حرصا أصيلا فى سليفة كل حى وفطرته

على انه اذا كانت حاجة مصر الى توكيد الروابط بينها وبين السودان أوضح من حاجة السودان الى مثل هذا التوكيد لوقع السودان عند منابع النهر فليس ذلك معنأما أن السودان أقل من حاجة مصر لتوثيق الصلات بينهما ، ولئن كان السودان منبع الحياة المادية التى تفيض على مصر مع فيضان النيل فمصر هي منبع الحياة المعنوية التى تفيض على السودان مع فيض الحضارة أيا كان مصدره ، وكما تحيط الصحارى بمصر فتقصر حياتها على ما يفذيها النيل به من

مياحه كذلك تحيط الصحارى بالسودان وتفصله عن مصادر الحضارة ، ولقد بالغت الطبيعة في ذلك حتى ليحسب الانسان حين ينظر الى خريطة النيل أن حوضه عالم مستقل فيه كل ما يحتاج اليه الحضارة من أدواتها وأسبابها ، ولقد فتحت موانئ على البحر الاحمر لتصريف تجارة السودان ولجلب التجارة اليه ، لكن هذه الموانئ لا تصلح ولن تصلح لتكون باب الحضارة والعمران ، بل كانت الحضارة وكان العمران يهبطان الى السودان من طريق مصر أكثر مما يهبطان اليه من أى طريق آخر . ولذلك كان السودان بأرجائه الفسيحة هو المهجر الطبيعي لمصر تحمل اليه من اسباب حضارة العالم ما يشركه بنصيب في هذه الحضارة .

وقد كان الغزو والفتح وسائل الحضارة في الماضى . فكانت الدول ذوات الحضارة القوية تغير على غيرها من الدول فتفقد من حضارتها وتغيدها من الحضارة القوية . ولذلك كثيرا ما اتصلت الحروب بين مصر والسودان لاستئقاء الصلات الطبيعية التى يجب ان يشعر السودانيون والمصريون جميعا بمحاربة اسباب ضعفها لا بالمحاربة فى سبيل وصلها . على أن تقدم العلم وتقريبه بين شعوب العالم المختلفة وتضييقه دائرة الارض جعل الغزو والفتح منظورا اليهما بعين المقت حتى من الاقوياء الذين كانوا يستفيدون منهما . وكلما ازداد العلم تقدما وازدادت الشعوب بعضها من بعض قربا وتمتنت الروابط العقلية والمعنوية وتحطمت الحدود والحواجز زادت اسباب التعارف والتفاهم واصبحت وسائل العنف والبطش بين الجماعات منظورا اليها بعين المقت والازدراء مثلها اليوم بين الافراد والطوائف . ويومئذ تكون بين شعبين متجاورين او بين شعب واحد يقيم فى بقعة من بقاع الارض سر العلم اسباب الرغد فيها شيئا عجا واما انكرا . ويومئذ يحل التضامن بين الشعوب محل التنافس . ويكون بين الشعوب المتجاورة التى تصل الطبيعة بينها اقوى رباطا وامتن عقدة . ثم تكون كل الاسباب الصناعية الطارئة على هذا التضامن والمفسدة اياه موقوفة مرهونة بالزوال

لامفر اذن من أن يكون هذا التضامن بين مصر والسودان على القواعد التى بعضى بها ظروف الحضارة فى الوقت الحاضر .
وادوات هذا التضامن كثيرة اشرنا الى بعضها حين الكلام عن مشروعات الرى الكبرى . فهذه المشروعات يجب ان لاتراعى فيها الا الاعنارات التى تؤدى الى حجز اكبر مقدار يمكن حجزه من مياه النيل لانتفاع اراضى الزراعة الواقعة على شاطئيه من اول مصر ذات الاولوية لاريجيه فى هذا الانتفاع الى آخر منابع النيل . كذلك يجب على مصر ان تكون المنبع الذى تجرى منه اسباب الحضارة الى السودان . فليس الى السودان سبيل للحضارة غير هذا المنبع . ذلك لان المصريين اكثر العناصر امتزاجا بالسودانيين منذ اجيال طويلة . ولئن كان هذا الامتزاج قد اقترن فى احيان كثيرة بعناصر سيئة من جانب او من الجانب الآخر فانه خلق بين الشعبين من الاواصر ما ييسر التفاهم بينهما الى حد كبير . والحضارة اذا مرت بمصر كان يسيرا ان يسيغها السودانيون بسبب هذه الاواصر . فاما اذا حملتها الى السودان عناصر اخرى ولو كانت من امم اعلى من مصر فى الحضارة كمها فانه لاتتساقلم فى السودان بعقل السهولة التى تتاقلم بها حين تحملها العناصر المصرية . ولعل الاسباب التى ادت فى الماضى الى عدم نجاح مصر فى حمل هذا النعبء الانسانى فى السودان ان الدين كانوا يقومون برئاسة المصريين هناك كانوا من عناصر غير مصرية ، وان المصريين الذين كانوا مرءوسين لهؤلاء كانوا من طراز محتاج لاسباب الحضارة فلا يستطيع ان يقدمها لغيره . واعتقد اعتقادا اكيدا ان مصر تستطيع ان تعاون السودان فى هذا المضمار معاونة جديده اذا وجد من المصريين ذوى المكانة والمقدرة من يتطوعون لهذا العمل من غير اية فكرة سياسية بل يدافع التضامن تحت تأثير الفكرة الانسانية السامية وحدها اعلم ان اعتراضا عمليا له قيمته يقف فى هذا السبيل .

ذلك وجود الانكليز في السودان وقيامهم بالحكم فيه . وهو اعراض صحيح اذا كان الانكليز يريدون حكم السودان لمجرد الحكم والاستعمار فللانكليز مصالح بريطانية يقتضونها من السودان اهمها القطن الذي يزرع فيه . ونعل المواصلات الامبراطورية بعض هذه المصالح كذلك . لكن الانكليز لا مصلحة لهم في اعاقه تقدم السودان وتحضيره . وكلما تقدمت الحضارة في السودان وكان اهله اقدر على الاستفادة من وسائل العلم كانوا اكثر انتاجا في سوق العالم العامة من جواناتها المختلفة . ولانكلترا في هذا مصلحة اى مصلحة . ولئن كانت الظروف السياسية قد قضت في الماضي ان تقب مصر وانكلترا في السودان موقف الخصومة فاعتقد ان الانكليز والمصريين قد ادركوا تمام الادراك سوء تلك السياسة وعقم نتائجها بالنسبة لانكلترا ومصر وللسودان جميعا . فمن الحكمة - وهذه هي الحال - ان يقدروا وجوب اتجاه السياسة في المستقبل الى غير ما كانت عليه سياسة السودان الى اليوم وليس نظام الحكم في السودان هو المشكلة العويصة في رأي . واعتقد ان من الممكن التفاهم في هذه المسالة بين مصر وانكلترا على ان تكون السودان ومصر منحدتين بينهما مثل نظام ال «federation» فيكون لكل في المسائل الداخلية حرية التنظيم والتشريع وترتبطان جميعا في المسائل الخارجية والمسائل العامة باتفاق مقررة قواعده وليس المقام هنا مقام تحديد لو تفصيل لهذا الاتحاد قبل قبول مبدئه . فاذا قبل هذا المبدأ كان وضع التفاصيل يسيرا . واحسب ان مثل هذا النظام في مرونته وقلييلته للتحويل يستطيع ان يحقق غايات الاطراف المختلفة .

وقد يمكن اذا قبل مبدأ هذا الاتحاد ان يترك النظر في مصالح انكلترا وامتيازاتها في السودان الى حكومة السودان نفسها تحنها في حدود المسائل المروكة بموجب نظام الاتحاد لتصرفها . ويخيل الى ان حلا كهذا قد يتفون من شأنه ان ينهى مسالة

معلقة لا فائدة لاحد من تعليقاتها وان يحل الى جانب ذلك مسائل كثيرة كمشروعات الرى الكبرى وكتحضير السودان وما الى ذلك مما يفيد السودان ومصر على السواء من غير أن ينشأ عنه ضرر لاية مصلحة من المصالح

واذا كان المؤتمر الامبراطورى البريطانى قد قبل مبدأ مساواة الممتلكات المستقلة مع انكلترا وأن يكون رباطها جميعا ولاها للتاج وذلك لمصلحة الامبراطورية البريطانية ولفائدة السلام فى العالم ، فان مثل هذه الفكرة الحرة فكرة الاتحاد بين مصر والسودان قد تسهل الوصول الى حل مسألة السودان حلا موافقا لمطلب مصر من غير مساس بما للدول من المصالح فيها

ولهذا الحل مزايا يعود أكثرها على السودان كما أن لمصر منها فائدة لا تنكر ، وهو فى نفس الوقت يكفل لانكلترا أن تحصل من السودان على المصالح والامتيازات التى ترمى الى تحصيلها من غير أن تضطر لحمل عبء المسئوليات المستقبلية التى تحملها اليوم فيه وأول مزايا هذا الحل انه يحقق ما يريد المصريون والسودانيون من وحدة القطرين ، من غير أن يجنى ذلك على عزة أى منهما ، ومن غير أن يعوق تقدمه متأثر بعوائده وعقائده واعتبارات القومية الخاصة ، وهو مع ذلك لا يجد من الاعتراض عليه ما يجده الاندماج التام بين القطرين ، فالذين يريدون هذا الاندماج يبنونه على التاريخ وعلى وحدة الجنس والعادات فى مصر والسودان ، وخصوم الاندماج ينكرون وحدة الجنس ويذهبون الى أن السوداfricanين غير المصريين والى أن طوائف العرب فى مصر وفى السودان لا تكون سواد الشعب فى أى بلد من البلدين وانما هى أقليات جاءت فى عصور الفتح الاخيرة ، وهم ينكرون كذلك وحدة العادات ويذهبون الى أن تطور الحضارة فى مصر غير من عاداتها القديمة حتى لو أن شيئا من الوحدة كان موجودا فى الماضى بين عادات المصريين والسودانيين فقد انقطع اليوم ، وسواء أكان هذا الاعتراض صحيحا أم باطلا فهو لا يغير من العلاقات الطبيعية التى بين القطرين والتى أشرت اليها

من قبل ، وهو لذلك اذا أمكن جدلا أن ينهض عائقا في سبيل الاندماج فلا يمكن أن ينهض عائقا في سبيل الوحدة

فالاتحاد السويسرى والولايات الامريكية المتحدة ليس بين الولايات التى يتكون منها أى من هذين الاتحادين مثل ما بين مصر والسودان من شبه أو علاقة ، انما تصل هذه الولايات روابط المصلحة البحتة ، فاما سوى ذلك فيختلف بين ولاية وولاية اختلافا بينا . فسويسرا على صغرها يتكلم أهلها ثلاث لغات مختلفة على الفرنسية والالمانية والايطالية ، ويدين أهلها بمذاهب مختلفة . ولا تجمع بينهم الا ناحية اخرى . والولايات الامريكية المتحدة تجمع من مختلف الامم واللغات والالوان . لكن رابطة الجوار والمصلحة تسمحون فوق كل اعتبار آخر وتجعل من الاتحاد الأمريكى قوة قومية وعالمية منقطعة النظر

ثم ان اعتراضا آخر يقيمه جماعة من المصريين انفسهم يجعل الاتحاد وسيلة صالحة . ذلك أن نظام القبائل والعائلات قد زال من مصر ولم تبق منه الا آثار لا قوة لها ولا سلطان وحل محله النظام الديمقراطى الذى جعل الحياة الدستورية هي الحياة الوحيدة الصالحة كنظام للحكم فى مصر . فاما فى السودان فما يزال نظام القبائل والعائلات هو النظام الاساسى الذى تقوم عليه الجماعة السودانية . ولئن كانت التطورات العالمية المقبلة قد تدفع السودان كما دفعت مصر نحو النظام الديمقراطى فان هذا التطور بحاجة الى زمن غير قليل . والى أن ينقضى الزمن اللازم لتنام هذا التطور فمن الصير بل من التعسف ، إخضاع السودان للنظام الذى تخضع مصر اليوم له .

وتمت اعتبارا آخر يجعلنا نفضل نظام الاتحاد بين مصر والسودان على نظام الاندماج . ذلك أن مصر متهمة فى سياستها بآراء السودان بأنها سياسة استعمار لا سياسة تحرير . وهذه التهمة تروجها

السنة السوء كما روجت من قبل تهمة حرص مصر على الاستئثار بمياه النيل . ولا تكتفى هذه اللسن بآتهام المصريين بالميل للاستعمار بل تذكر السودانيين بايام قديمة كان نواب حاكم مصر في السودان يسلكون مسلك العسف والاستبداد ويضربون هذا المسلك نظاما لحكم المصريين ومع بطلان هذه التهمة أمام التاريخ والحق لان هؤلاء الولاة الذين يوفدون الى السودان لم يكونوا مصريين وانما كانوا من جنس الحكام الذين يحكمون مصر نفسها ، فانا نعتقد ان المصريين احرص من ان يهتموا بالميل للاستعمار وانهم يريدون للسودان التقدم الحقيقي نحو الحرية . وذلك يتحقق تماما تحت نظام الاتحاد . فيومئذ يكون المصريون الذين يذهبون للخدمة في السودان انما يذهبون بدافع محبة السودان والحرص على رقيه لبدافع استعمارهم وحكمه . ويومئذ يجد السودانيون الوسيلة للرقى ولتحقيق كل معاني العزة القومية

ولهذا الحل مزايا يعود اكثرها على السودانيين انفسهم . فهو يطمئن جميع المصريين تمام الطمأنينة على مشروعات الرى الكبرى ويزيل من نفوسهم كل خوف من ان تكون هذه المشروعات يوما من الايام وسيلة لاکراههم على قبول ما لا يقبلونه اختيارا او سببا لارغام عزتهم واذلالهم . ويومئذ تتسع الاراضى المصرية القابلة للاستغلال وتضعف في نفوس المصريين فكرة الهجرة الى زمن طويل مقبل . واذا كانت النفس الانسانية غير مولعة بالانتقال الا بدافع المصلحة وكان الاكثرون لا ينظرون الا للمصالحهم الخاصة القوية فان المصريين الذين يذهبون في هذه الظروف الى السودان سيذهبون تحركهم عواطف انسانية سامية تريد ان تمتن صلة الحضارة بين السودان وكافة مواطن الحضارة التى يتحضر انتقالها الى السودان عن طريق غير مصر كما سبق القول . وما نشك في ان هؤلاء سيعاونون على سرعة رقى السودان في مضمار التقدم الانسانى ملازمة ادوات الحضارة

المادية تشاذ فيه فتعاون على تزايد سكانه وعلى اخذ ابنائه
 بنصيب في المعارف اللازمة لزيادة الرغد والرخاء في ارجائه .
 وتعتقد ان السودانيين يشعرون بشعورنا هذا ، وان
 الانكليز الذين اقاموا بالسودان منذ افتتاحه وتعاونوا مع المصريين
 في تنظيحه يشعرون بهذا الشعور كذلك . ومهما كانت
 احداث السياسة قد دعت في بعض الظروف الى اعلان سينات
 عن المصريين واعمالهم في السودان فالحقيقة التي لا ريب فيها ان
 المصريين كانوا دائما اشد العناصر صلة بالسودانيين واكثرها عطفًا
 عليهم ، وانهم لم يكونوا في السودان تحركهم عاطفة الانانية التي تحرك
 غيرهم من النازلين اليوم فيه ، والتي تدفع هؤلاء الى ان يقصروا
 نظرهم على المصلحة الشخصية والحرص على اقتناء الثروة .
 وهذا الحل ادنى الى المصلحة البريطانية من نظام السودان
 الحاضر . فهو حل يرضى عزة السودانيين ويتفق وكرامتهم
 للقومية . وهو لذلك يبعد السودان عن اسباب القلق التي
 تكلف الحكومة البريطانية مسئوليات الامن والنظام في
 السودان وما يترتب على هذه المسئوليات من نفقات يحتملها
 دافع الضرائب الانكليزي من غير ان يكون لاحتماله ايها ضروره
 ملجئة . ثم هو حل يتفق وتطور العالم في سبيل التضامن السلمي
 المنتج لخير الجميع ، والذي اصبح يحل رويدا رويدا محل
 القوه والاكره والاستعمار . وهو من جهة ثالثة اقرار لنظام مرن
 لا يتنافى مع ماتريده انكلترا من تقدم زراعة القطن في السودان
 ومن بحاج مشروع الجزيرة نجاحا باهرا . وهو فوق ذلك يعين على
 هذا النجاح ويجعله اقرب منا لا وقل نفقات بما بطوع للمصريين
 من الاخذ فيه بيد السودانيين ومعاونتهم اياهم معاونة هي
 لاشك خير واجدى من معاونة الفلانة وغير الفلانة من المزارعين
 الطائرين . ولئن كان المصريون قد ترددوا في هذه المعاونة لما
 دعتهم انكلترا اليها من طريق شركة الجزيرة في سنة ١٩١٢ .



فذلك لان ظروف السياسة كانت يومئذ مبعثا للخوف والقلق .
بينما اقرار نظام كنظام الاتحاديين مصر والسودان وما يترتب
على هذا النظام من الطمأنينة تقوى المصريين يزيل كل اسباب
الخوف والقلق .

وتمت اعتبار آخر لا يمكن ان يغيب عن فطنة السياسة
البريطانية وبعد نظرها ذلك ان سواد المصريين لا يمكن ان يهداهم
بال اذا راوا السودان منفصلا عنهم . وهم سيذكرون دائما
كلمة وزيرهم شريف باشا : « اذا تركنا السودان قال السودان لن
يتركنا » ، وكلمة المستشار الانكليزي لوزارة الاشغال
المصرية : « السودان الزم لمصر من الاسكتلوية » . واذا صح
ان مرت فترات من الوقت هدأت فيها عواصف السياسة
لسبب من الاسباب واضطر المصريون للرضى عن
حالهم سواء لعدم ملائمة الوقت او لان القادة الظاهريين منهم قد
شبعت اطماعهم بما نالوا من المناصب والجاه والمصالح لانفسهم
ولذويهم فان هذه الفترات لا يمكن ان تدوم في حياة الامم مادام
ثمت ما يندعو الى تزعزع الامور فيها . كذلك لا يمكن ان يغيب
عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها ان السودان وحده
بينهما فضلا عن رابطة النيل الطبيعية وابطلة الافة والمقيدة
والجوار . وهذه روابط لا وجود لها عند اى من الدول الاخرى
المتاخمة للسودان . وطبيعي مع تقدم السوقي والحضارة في
السودان ان تزداد عقدة هذه الروابط متانة وان ينظر السودان
لمصر يمثل المعطف الذي ينظر مصريه للسودان . ويومئذ لا يترك
السودان مصر اذا هي تركته . ولا يمكن ان يغيب عن فطنة
السياسة البريطانية وبعد نظرها اخيرا ان فترات القلق اصح
الفترات للشعوزة السياسية وابعدها عن ان تكون الظرف
الملائم للاتفاق الودئ المعقول . فاذا كان ذلك كله صحيحا كان
الوقت الحاضر انسب الاوقات للتفكير في اتحاد مصر والسودان
على المبادئ السابق ذكرها . ذلك بان الوقت مهيأ وهدوء فكل

اتفاق يتم فيه يتم بعد رويته وتفكير ويكون منبعثا عن اعتقاد صحيح بصلاحه .

ولقد اكدت لى اقامتى القصيرة بالسودان صحة هذا الراى الذى عرضت . فكما ان السودانيين بحاجة لى أن يقوموا بالعمل لتتطور نظمهم الحاضرة فى اتجاه يتفق وسيرة العالم الحاضرة - هذه السيرة التى لا مفر من وصولها الى ايجاد مشابهة كبيرة بين نظم الحكم فى مختلف دول العالم بسبب ما تقرب المواصلات الدول بعضها من بعض - فهم بحاجة فى هذا السبيل الى معونة صادقة مخلصة ليست لها اية غاية سياسية ، واذا كان وجود الانكليز للاشراف على تقدم زراعة القطن فى سهل الجزيرة من شأنه ان يعطيهم فى ذلك مثلا صالحا فان الفارق بينهم وبين الانكليز فى اللغة والجنس والعادات والدين يجعلهم بحاجة الى المصرى القريب منهم فى ذلك كله والذى درس الانكليز عن قرب ، والذى لا يرجو بعد وضع قواعد الاتحاد بين مصر والسودان ، الا ان يهد السبيل لبقاء هذا الاتحاد وثيقا متيننا بعيدا عن العثرات والاضطراب .

كتب للجميع

كتب قيمة بقروش زهيدة

صدر منها حتى الآن

- ١ - آبار في الصحراء - مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود كامل المحامى
- ٢ - الضاحك الباكي - احاديث عن النوبة المصرية وذكريات عن الصبا والشباب للاستاذ فكرى اباظه بك
- ٣ - الف ليلة الجديدة - اخراج جديد لهذا القصص الفريد فى الادب العربى للاستاذ عبدالرحمن الحميس
- ٤ - نساء من خنزف - مجموعة من القصص المصرية المصرية الشائقة للاستاذ سعد مكاوى
- ٥ - صندوق الدنيا - مجموعة صور فكاهة من الحياة للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
- ٦ - فرعون الصغير - مجموعة قصص مصرية مصرية طليحة للاستاذ محمود تيمور بك
- ٧ - الشرق والغرب - مجموعة قصص تصور الحياة المصرية مع مقارنتها بالحياة فى بلاد الغرب للدكتور محمد عوض محمد بك
- ٨ - قصايا الحب - مجموعة من الحرب وأمتع القضايا التى عرفت على المحاكم المصرية فى مختلف بلاد القطر للاستاذ فائق الجوهري المحامى
- ٩ - جيشنا فى فلسطين - تسجيل تاريخى لمارك الجيش المصرى فى حملته لانقاذ فلسطين من الارهاب الصهيونى للمصاغ السيد فرج
- ١٠ - الف ليلة الجديدة - المجموعة الثانية من هذا القصص الفريد للاستاذ عبد الرحمن الحميس
- ١١ - فى الممرأة - مختار الرايا التى شرت فى السياسة الاسبوعية لفقيه الادب الشيخ عبدالعزيز البشرى
- ١٢ - غاديات رائحات - مجموعة قصص مصرية متنوعة من صميم الحياة تصور النضال العنيف بين الحب والمواطف الاخرى للاستاذ محمود طاهر حفي

- ١٢ - صلتع الحب - مجموعة من القصص الواقعية ، جرت حوادثها في القاهرة وباريس ولندن
للاستاذ احسان عبد القدوس
- ١٤ - دموع وضحكات - مجموعة قصص واقعية تمثل ماضي الحياة
من ماضي ولحوائطها للكاتب الكبير
الاستاذ عباس حنا
- ١٥ - عند ما تحب المرأة - مجموعة قصص مصرية تصور قلبه
للرأة وتحلل غواضها للاستاذ حلمي
مراد الحلمي
- ١٦ - حاجي بابا الاصفهاني - عن جيمس موريه بقلم رمي القاصي
مجموعة من غرائز قلوبها وتحكك
أعني الناس لشكا
- ١٧ - جرائم ومرافعات - للاستاذ يوسف حلمي الطحى - مجموعة
من أشهر القضايا الجنائية القوية التي
أثارت اهتمام العالم كله
- ١٨ - الطريق إلى السعادة - للفيلسوف الامريكى هنرى لثك بقلم
فروت محمود - أبحاث عملية تجريبية
للتخلص من متاعب الحياة والحصول على
السعادة
- ١٩ - موعد في الجنة - قصص واقعية عن الإقبال المريعين الذين
استشهدوا في فلسطين للصحنى المروف
الاستاذ حلمي سلام
- ٢٠ - نجيب الريحاني - دراسة واقعية دقيقة حياة نجيب الريحاني
بقلم الاستاذ عثمان العنتيل
- ٢١ - صور من الريف : صورة صادقة لحياة الريف بها فيه من
نعيم وشقاء ، وصبرات وأحزان للكاتب
المبدع الاستاذ محمد زكي عبد القادر
- ٢٢ - الحب في التاريخ - أشهر قصص الحب التاريخية للاستاذ
سلامة موسى

تمن كل نسخة من هذه الكتب

٥ قروش

تطلب من شركة التوزيع المصرية ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

تقول أحدث النظريات العلمية..



• إن الناس يقرأون القصص والروايات
لأنهم يجدون في حياة أبطالها فإنهم يندمجون
منه بتجاربهم
• ولما كانت الحياة ليست التجارب فإنهم يندمجون
بها في أعمارهم
• وأن تضيف إلى عمرك مرات بقدر عدد القصص
التي تقرأها في

قصص للجميع

يصدر قريباً

الأحرار

عبد الرحمن الخديسي

يطلب من مكتبة النهضة المصرية ٩ ش على باشا
ومن جميع المكتبات الشهيرة

توجد أجهزة أدميرال

راديو جرافون

يكل ما تحتاجه البيت

طهي كهربائي



شلاجة

في ادميرال يرقى طاعتك ويهرف بحب
يشبعها وهو في أحبابه وأساره يلائم كل ذوق
ويوافق كل ميّزية. وتعتبر الشلاجة هدياً - تامة
ذات الحزمة الداخلية المحبوبة في تصميمها وقناتها
وإذا أنصت إلى راديو أدميرال أنجيك صوته
الطبيعي الخلي كما أن الطهي الكهربائي أدميرال
الذي يطهي وحده آلياً وجبة طعام كاملة جدير
بتقدير ورضا ربات المنازل. ويقتل في كل
جهاز من أجهزة أدميرال جمال التصميم وجمو
الفن الهندسي وندرة القيمة

جهازاته لحفظ الأغذية

أجهزة راديو
صغيرة



أجهزة تغذية الاسطوانات آلياً

الوكلاء الموزعون للقطر المصري

مركز الشرق الأوسط للمشتريات والتوزيع والتجارة
عمارة ايموبيليا رقم ٢٦ شارع شريف باشا بالقاهرة

من كتب للجميع

الكتاب القادم

وراء القضبان

للاستاذ أحمد حسين

يصدر في أول ديسمبر سنة ١٩٤٩

١٥٠ صفحة ٥ قروش

بنك مصر

شركة مساهمة مصرية

س.ت.٢ - القاهرة

مؤسسوا الصناعة الكبرى وشركات "مصر"

مركزه الرئيسي ١٥١ من محمد بك فريد "عماد الدين سابقا"

يؤدي جميع أعمال البنوك

فروع: الإسكندرية - ١٩ شارع طلعت صرب باشا

للبنك فروع ومكاتب ومندوبيات بأهم مدن القطر المصري

وله مراسلون في جميع أنحاء العالم

قسم صندوق التوفير يشجع على الاقتصاد والادخار

قسم تأجير الخزنة الحديدية - الإيجار بشروط مناسبة



من القايه إلى المصنع
ومن المصنع إلى
كل مكتب وكل منزل

فهي ممتازة بالمتانة ووفرة المصنع
مستأنة صممت بأيدٍ مصممة

كرسي لال الشرق

٣٥ شارع سراس في القاهرة - مصر
مطبعة جريدة مصر
١٩٧٧ - ١٩٧٨

الحاضر أو الزواج أو المستقبل الحاضر
أو الحب أو العمل أو الفضيحة أو السفر

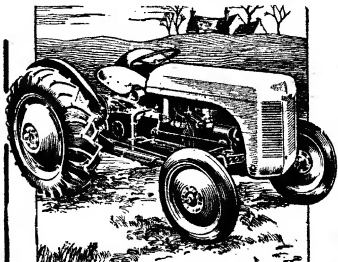
الوحيد الذي نجح في التنبؤ
البوليس والنيابة والطبيب الشرعي

الكاتب

١٥٣ شارع الملكة نازك ٢٥ في القاهرة - مصر
١٩٥٣ - ١٩٥٤

جرار فزبون

أكثر الجرارات إنتاجًا وأقلها استهلاكًا



يؤدي جميع الأعمال الزراعية

بمجرد اللمس بأطراف الأصابع
كفاءة ممتازة تحت جميع الظروف الزراعية
الوكلاء في الشرق الأوسط

شركة الشرق الأوسط للمشروعات والتوزيع
مساحة العرض ثمانية شارعى عماد الدين ودويره بالقاهرة

لواء الأسلام

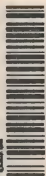
يصدرها اتم حمزة
أول كل شهر رجب

صدر اخيرا
العدد الجديد الممتاز
عن

الهجرة

اطلبه من باعة الصحف

Bibliotheca Alexandrina



0464318

col.
24
19